جعفر الخليلي

الضائع

أو أمين [illegible]

قصة كتبت بلسان

فتى غاب عن أهله ثلاثين سنة

نزعات ، أفكار ، حقائق ، آمال

مطبعة الراعي
في النجف

تمرد

هو ذا قد أنابني عنه في سرد قصته الغريبة ، وليس في ذلك من سبب غير انه لم يطق - كما يقول - ان يكتب وان يصف وينسق قصته ويظهرها للناس سلسلة متصلة الحلقات ، محبوكة الاطراف ؛ او قل انه لا يملك من الشجاعة ما يستطيع ان يجابه الناس بارائه وجهاً لوجه فيقفهم بقلمه على مكنونات نفسه التي قد لا تخلو من شذوذ وخروج على بعض التقاليد والمعتقدات ،

وها انا ذا اجيب له طلبه فاكتب قصته كما لو كنت انا بطل هذه القصة ؛ وسأجهد نفسي بان اتصور الظروف التي حاطته كما لو كانت تحيط بي انا فانقلها صورة صحيحة ذات لون ثابت لا يقبل التغير ، صورة من عاش في محيط مثل النجف الاشرف بكل خطوطها وملامحها :

كنت ابن تسع سنوات حينما بدأت الشكاوي ترد

تترى على والدي من سكان المحلة بسبب الاضرار التي
الحقتها بهم من جراء طيشي ؛ فقد قيل ان حجارتي التي
أرميها في الفضاء من الشارع لا بد وانها تهشم الجرار والزجاج
اذا لم تصب الرؤس وتفقأ العيون ؛ وان الكرة التي
صنعتها بيدي من الخرق وطرزتها بالصوف الملون كانت
كثيراً ما تقلق راحة الجيران حينما تقذفها ضربة قوية مني
تلقيها وراء البيوت وعلى السطوح؛ فاروح طارقا عليها الابواب
ومتسلقاً سلالم الدور ولا اعود الا وهي بين يدي صاعدة
نازلة دون ان يثنيني عن ذلك ضجر الناس وصراخهم :
اضف الى هذا كله ما كنت اقوم به من ضروب الوقاحة
والوان الحركات التي تنتهي جميعها بايذاء المارين في شارعنا
وفيما جاوره من الشوارع ؛ ولاسيما الشحاذين والمستجدين
الذين لم يقف احدهم على باب دار الا وجمعت حوله الصبيان
وما اسهل علي حينذاك من ابتكار النشيد الذي يتناسب مع
وضع السائل وحاله ؛ ويكفي ان انشد الكلمة لتسمع ترديدها

من قبل الاطفال الذين يكونون مستعدين للانشاد والتصفيق ،
فاذا ترك الشحاذ المحلة وغادرها فقد حصلت الكفاية بالنشيد
والتصفيق والضحك ، وان حدثته نفسه بالمقاومة وبدت عليه
علائم التهديد من قبيل رفع العصا او الانحناء لالتقاط حجر
من الارض فهناك المصيبة العظمى والطامة الكبرى ؛ اذ
تنقلب شخصيتي هنا ومعي الصبيان الى شخصية بطل لا يلذه
شيء غير الظفر والغلبة وتبدأ السماء حينذاك تمطر حجراً وماء ،
اما الحجر فهو مما تقذف به ايدي الاطفال من ميدان الشارع
واما الماء فهو مما يفرغه الاطفال من ميدان السطوح ، ويخرج
السائل من المحلة رضي ام أبى مغلوباً على امره اذا لم يكن
مضروبا على رأسه وظهره وبطنه ،

كل هذا واكثر من هذا كان يهيج سكان المحلة ويجعلهم
في حيص بيص من امري وقلما يمر يوم دون ان يطرق بابنا
مشتك طالباً من ابي ان يجعل لوقاحة ابنه حداً ؛ وان يتخذ
الوسائل الكافية لمنع ولده من الاختلاط باولاد المحلة خوفا

من أن يتطبع هؤلاء الاطفال على شراسة هذا الشرير فتفسد اخلاقهم ؛ وكل شكوى من هذه الشكاوي كانت تسبب لي نكبة كبرى وتتركني في حال اشبه ما يكون بالاموات من شدة الضرب واللكم الذي كان يكيله لي الوالد رحمه الله بدون حساب ظانا ان ذلك سيلطف من خلقي وسيخفف من (شقاوتي) ويجعلني هادئاً كما يود ؛ ساكناً كما يريد ، وعلى انني كنت اتلقى الضرب بجزع وفزع وخوف عظيم ولكن الضرب لم يترك على نفسي من الاثر شيئاً ؛ والسر في ذلك - على ما اظن - يعود الدلال ؛ وللحرية المطلقة التي منحني اياها ابي من قبل حتى اصبح لا يفيد معها الضغط بعد ما شببت عليها والفتها مدة من الزمان ؛

واشار صديق لوالدي بان يرسلني الى (شيخ) معروف بالقساوة وموصوف بالشدة ، ليتولى تدريسي وتربيتي ويعدل ما اعوج من خلقي وماشذ من طبعي وهواي ؛ واستخار الوالد واستشار حتى اذا كان يوم السبت وجدتني أسير خلف

هذا الاب الحائر متجهاً الى [الشيخ]

وما كاد يستقربنا المقام حتى شرح الوالد للشيخ كل قضاياي واطلعه على جميع حركاتي والشيخ يستعيذ بالله من الشيطان ويكثر التحديق في وجهي ثم افهمه قائلا : اسمع ياشيخ ... هذا ابني بالروح فقط ؛ اي اني قد وهبت لك منه الجلد واللحم والعظم ، لتبيد ذلك كله في سبيل تقويم خلقه واذا شئت ان تبقي لي شيئاً فحسبي منه النفس الصاعد والنازل حتى اذا ما صلح امره ، واستقام طبعه؛ الفيتني ذاكراً لك هذا الصنع باضعاف ما يذهب اليه ظنك ؛ وشاكراً لك هذا الفضل ما حييت ، وليس عليك اليوم الذي يتحقق فيه وعدي ببعيد ؛

سمع الشيخ كل هذا فطمن خاطر الوالد وأكد له النجاح في مدة قليلة وفي زمن لا يزيد على شهر حتى تركني الأب وانصرف

كان مجلسي الى جانب صبي يكبرني قليلا في العمر وليس في الوقاحة ؛ ولم يستقر بي المقام بعد حتى لفت نظري قلم

من القصب الاحمر على صندوقه فمددت يدي اليه وانتشلته
ومد هو يده الي ليأخذه فمانعت وبين هذا الدفع والجر
انقلبت المحبرة على القرآن فاطلقت القلم من يدي مرتهباً ودوى
صوت الصبي حتى بلغ اذن الشيخ وما كاد [الشيخ] يرى
ما فعلت ، ويشاهد الحبر المسكوب ويقف على جلية الامر
حتى مد لي يداً لو كانت من حديد لالتوت فاذا بها ضربة
طنت على اثرها اذناي ، وتطاير الشرر من عيني واذا بي
مذهل كالسكران ، لا اعي من شدة الالم شيئاً

لم يستطع هذا (الشيخ) ولا الاب ان يقيما هذا الفتى
المتمرد على حال من الاحوال ولم يقدرا على ان يكبحا جماح
نفسه رغم الضغط الشديد والتدابير القاسية التي اتخذاها ، حتى
ان ابي اقسم مرة انه سيلقيني في البئر ان عدت الى الشارع
لاعباً وانا اعلم انه ان قال فعل

واستمر الحال معي نحو خمس سنوات واكثر لا يلين
مني جانب الا ليشتد جانب آخر ؛ ولا تهدأ لي ناحية

نفسية الا لتثور ناحية اخرى ،

وذات يوم وانا عائد من [الشيخ] اذا باحد اصدقائي من الاولاد يستوقفني ويشكولي اعتداء احد اولاد الموسرين عليه ثم يلقي بنفسه علي طالباً مني نجدته ، وراجياً اغاثته ولم يكن مني الا ان دفعت اليه [التنكة] التي كان يستعملها الطلاب حينذاك بدلا من الورق ودفعت اليه قلمي ومحبرتي الخزفية ليبعث بها الى بيتي ورحت انا افتش عن هذا الولد الذي غرته ثروة ابيه فصال على هذا الفقير واهانه؛ ورغم تفتيشي الطويل وبحثي المتواصل عن المعتدي فانني لم اعثر عليه الاصباح اليوم التالي وانا سائر في طريقي الى [الشيخ] فألقيت بلوازمي جانباً. وقبضت عليه من تلابيبه وصرت انزل عليه الضربة اثر الضربة ؛ وجاءت ضربة مني على انفه كانت سبباً في تفجر الدم ..

هنا حملت لوازمي من الارض واطلقت ساقي للريح ؛ وبالقرب من مقر (الشيخ) وقفت هناك متأملا: كانني كنت في حلم واستيقظت ، ترى من الذي سيخلصني اليوم من ابي ومن

شيخي ؟ بماذا سأعتذر وكيف استطيع ان ألفق العذر ؟
ادركت اني هالك لا محالة وليس لي ملجأ غير الفرار ففررت

فلو

وكان لاسرتنا صديق من (سراكيل) مقاطعات [العباسية] وقد اعتاد ان ينزل في ضيافتنا كلما قدم النجف للزيارة ، وقد سبق لي ان زرت محله في (ابوشورة) بصحبة اهلي جميعاً مرتين وتذكرت انني قادر على ان اجدلي عند صديق اسرتنا هذا ملاذاً يقيني من قساوة الاب وظلم [الشيخ] وما كدت اتذكر هذا الا وبادرت بتنفيذ الفكرة والخروج من النجف وايصال نفسي الى (ابو شورة) قبل ان تنالني عصا (الشيخ) الغشوم وهان لدي السفر وتجشم هذه المشقة التي قد تبين انها بسيطة هينة للكبار ولكنها صعبة جداً وغاية في الصعوبة للصغار من امثالي حينذاك ؛ بيد ان خوفي من ابي وسأمي من هذه الحياة النكدة المليئة بالآلام التي

لم اعرف فيها الهناء يوماً واحداً قد ذللت هذه الصعوبة امام تفكيري وجعلتني اشد ما أكون عليه من العزم في تنفيذ هذه الرغبة ؛

خرجت من النجف وتوجهت الى باب المدينة وهناك اقتفيت اثر القوافل ماشياً على رجلي ومتجهاً الى الكوفة حتى ادركت جماعة قد امتطوا المطايا قاصدين الكوفة فرأيت ان اسير الى جانب هذه القافلة لاقطع الطريق برفقتهم وان كانوا راكبين وكنت انا راجلا ، وحانت من احدهم التفاتة بعد قليل فسألني عن وجهة سفري وعن اسمي واسم ابي والسبب الذي دعاني الى ان اقطع هذه المسافة ماشياً على قدمي وانا طفل صغير يدل هندامي على انني لست من ابنا السواد ولم ادر كيف اجيبه ولكن لم يمر علي بعض زمن حتى ناداني قائلا : تعال واركب وكانت له صبية قد اركبها منفردة على حمار لنفسها فاركبني معها

وبعد ساعة ونصف ساعة بلغنا مسجد الكوفة فترجل الجميع وكانت الشمس قد توسطت السما فيممت وجهي نحو

النهر احاول عبور الجسر والوصول الى ابو شورة قبل غياب الشمس وقبل ان افارق الجماعة نادى الرجل زوجته وطلب منها رغيفاً من الخبز ومقداراً من التمر فقدمه لي وقال : (خذ هذا فاخشى ان تكون قد جعت) ولا ازال للآن اذكر هذا الرجل الطيب واتصور ملامحه وتقاطيع وجهه وبودي لو اعرفه اذا كان لايزال حياً ،

عبرت نهر الكوفة وسرت في الطريق المتعرجة دون ان اسأل احداً ، وبين التشكيك والخوف من ان اضل الطريق ظهرت لي العلامات التي زادتني وثوقا بمعرفتي الدرب ولم ازل اطمئن لهذه العلامة واشك في هذا الاثر حتى وصلت ؛ ولا انس انني لقيت من الترحيب والعناية الشيء الكثير عند هؤلاء الاصدقاء ولكني بقيت متكتما حذراً اخاف ان اخبرهم بحقيقتي فيعيدوني الى اهلي ، وقد لفقت لهم حكاية خلاصتها ان أبي ارسلني اليهم لاقضي عندهم اياما بغية التنزه (وتغيير الهواء) ،

وبعد اسبوع كان اهلي قد كلوا من البحث عني في جميع مظانهم فلم يعثروا علي وصادف ان سافر احد اهالي هذه القرية - التي لجأت اليها آمنا - الى النجف فاخبرهم بوجودي هنا وكان ان بعث ابي الى صديقه كتابا يشرح له كيفية هربي ويطلب منه اعادتي الى النجف ؛

وفي تلك الليلة اخبرت بأني سأرسل الى والدي مع احد فلاحيهم ، واني لاذكر الآن كيف كان وقع الخبر علي عظيما ؛ فقد اعترتني حالة خجل لا استطيع وصفها لانكشاف سري وظهور حقيقتي التي حاولت اخفاها بما لفقت لهؤلاء من كذب ؛ واعتراني خوف شديد مما سألاقيه على يد ابي رحمه الله وشعرت بأني مقبور في هذه المرة وان لا خلاص لي من هذا البطش الذي ينتظرني ، فرحت افكر فيما عسى ان افعل ؟ وبماذا يمكن ان اتخلص ؟ وكأن مضيفي قد شعر بما يخالجني وادرك سر هذا الوجوم الذي علاني ورأى انني اعاني قلقاً لا طاقة لي على تهدئته وليس من اليسير القضاء عليه فغدا

يخفف عني وقع هذا الحادث ويؤكد لي سلامتي من كل شر
ثم قال لي انه سيخبر فلاحه الذي سيرسلني معه باعادتي اليهم
اذا ما وجد أبي حاقداً علي وغير راض مني ،

وكان من السهل ان يقنع واحد مثلي بهذه الوعود لو لم يكن له والد مثل والدي لا يعرف الرحمة في مقام التربية ولا يلين في ساعة الشدة ، وهو وان كان قد افسدني بالحرية الكاملة التي وهبني إياها قبل السنة التاسعة من العمر ولكنه اليوم غيره بالامس فهو يريد ان يقوم ما اعوج من خلقي بالضغط والشدة والبطش ؛ وبكل وسيلة من وسائل العنف والقوة ناسياً انه لم يخرج عن حدود التفريط في كلا الحالين ، وان الشدة بهذه الصورة في التربية لتعطي نفس النتيجة التي يعطيها اللين بتلك الصورة ؛ الحالتين اللتين ادركتهما انا عند الكبر

وبقيت تلك الليلة في اشد حالات الانفعال تأخذني موجة من الخوف وتردني موجة اخرى ؛ يملأ قلبي الرجاء مرة ؛ ويقضي علي الوجل آنا ؛ الى أن قر رأيي على الهرب

حتى من هذه القرية الآمنة وإلا فقد عرضت بنفسي لقساوة
لا اطيق احتمالها. قساوة لا شك وانها ستذيقني الموت حتما؛ ثم
هب اني قد عدت الى النجف فكيف اطيق الزراية واحتمل
الذل امام اصدقائي واعدائي من الاطفال الذين دوختهم قوتي
وأرتهم مني بطلا دونه عنتر بن شداد في البطولة والقوة ،
وهكذا ازمعت النية على الهرب حتى من هؤلاء الناس قبل
ان يسلموني بيد ابي ، وليفعل الله ما يشاء .

حسن التخلص

وعند شروق الشمس خرجت من الكوخ ميمما وجهي
نحو الشرق متخذاً طريق الشاطئ وانا لا ادري الى اين
ستصل بي قدماي؛ ولكني عزمت على ان اجري مع النهروان
او اواصل السير لعلي بالغ جهة استطيع ان اقيم فيها ؛ وكان املي
قويا بهذه المضائف والاكواخ المتصلة بعضها ببعض لكثرة
ما كنت اسمع عنها من ضيوفنا القرويين الذين يزوروننا في

النجف فكنت واثقاً بأني حاصل على رغيف من الخبز اينما اتجهت واينما اعياني المسير وعضني الجوع ؛ وما بلغت المنعطف الذي يشرف على النهر حتى صرت اركض واعدو بقوة الشباب وبحرارة العزم الذي يعرفه الخائف؛ وقبيل الضحى من اليوم نفسه بلغت [كرداً] لاحد الفلاحين فسلمت وجلست

سألني صاحب الكرد عن هويتي فلم أدر بما ذا اجيب ؟ ولكني طلبت منه ان يدلني على مضيف قريب منه فأبى قائلا : اذا لم تخبرني بحقيقة سفرك فاني سأمتنع عن إيصالك الى المضيف ؛ !!

وتحيرت في امري فلم ادر الذي اقول؛ وبين الحاحه في السؤال وترددي في الاجابة اذا بفارس يخرج من بين النخيل ويدور حول الكرد ثم ينزل من ظهر فرسه ويرفع اللثام فاذا به احد الفلاحين الذين ارسلوا للبحث عني في مختلف الطرق المحيطة بهم ويحملني بين التردد والتمرد الباديان مني على فرسه ويعود بي الى القرية ؛

وعاد صاحب القرية يقسم لي بأغلظ الايمان بأنه سيجعلني في حرز حريز من صولة ابي وانه سيستبقيني عنده اذا وجد أبي يحاول أستعمال القسوة معي ؛ ومازال بي حتى اقتنعت مرغماً ورضيت بتعهداته مكرها وتهيأت للعودة الى النجف بعد ظهر ذلك اليوم

واعدوا لأهلي من الهدايا حملا من الحبوب وعدداً من الدجاج وكمية من السمن ووضعوا في جيبي « منگنتين » وهي العملة الدارجة في ذلك اليوم ثم حزموا الامتعة على حمارين واركبوني على احدهما بينما بقي فلاحهم يسوق الحمارين متجهين الى النجف ؛ وكنا قطعنا مسافة قصيرة احسست بقلبي يضطرب وفؤادي يخفق من الخوف والخجل ثم تصورت مقابلتي لوالدي بعد هذا الغياب فألفيت الفلاح غير قادر على القيام بمهمته ، والحيلولة بين والدي وبطشه وهب انه توفق في ذلك فان توفيقه سيكون مقصوراً على المدة التي سيمكث فيها معي عند اهلي ، اما اذا سافر هذا الرسول وعاد الى اهله فمن يضمن لي السلامة ؟ ومن ينقذني من ابي ؟

كل هذا قد مر على مخيلتي بصورة واسعة كبيرة فتضاعف خوفي وصغر قلبي ، وتملكتني سورة ارتعاش شديد جعلتني ذاهلا لمدة من الزمان ، وذهبت محاولة الفلاح في تسليتي وما كان يقص علي من القصص طول الطريق سدى فلم التفت لما يقول ولم اعرف الذي يحكيه لانشغال بالي بما سألاقي حتى بلغنا الكوفة

وهنا رأيت ان لاخلاص لي من هذا الرقيب الا بحماية [النبي يونس] صاحب المزار المقدس في الكوفة ، ولكني كنت لاأحسن ترتيب الحيلة ولا اعرف كيف الدخول الى مسجد [النبي يونس] وبعد تفكير عميق قلت للفلاح ونحن عابران على الجسر ان ليس من الصواب ان نواصل السير دون ان نتأخر بضع دقائق نستريح فيها من تعب الطريق في الكوفة ورجحت له النزول في مسجد النبي يونس ولو لنصف ساعة نستعيد بها نشاطنا ونستريح من التعب وكان هذا المسجد حينذاك محطاً للغادين والرائحين ، وكانت القوافل والقوارب

القادمة من طويريج لاتقف الا على باب هذا المسجد ؛ بحيث انه كان هو والخان الذي الى جانبه هما كل ما في شريعة الكوفة من البنايات العامة حينذاك ، اما العمران الذي تشهده اليوم في هذه القصبة فلم يكن له أثر يومذاك وسكة الترامواي لم تكن مخطوطة حتى في عالم الخيال ، وكانت المحلات التجارية لم تزد على بضعة [خانات] حقيرة هي بمثابة مستودعات للبضائع الواردة الى النجف ،

لقد مانع الفلاح في بدء الامر محتجاً بعدم امكان حفظ هذه الامتعة التي نحملها وصعوبة انزالها في المسجد ثم حملها مرة اخرى الى النجف غير اني افهمته بعدم استطاعتي مواصلة السفر لشدة ما عانيت من تعب واقنعته بان لا سبيل الى ذلك بغير هذه الصورة . ثم طلبت منه ان يجلس حيث اراد ويدعني انا لشأني على شرط ان لا تتجاوز مدة غيابي عنه وذهابي الى المسجد اكثر من نصف ساعة فلم يوافق على هذا الرأي لانه كان قد ألزم بمراقبتي مراقبة شديدة وبملازمتي ملازمة تكفل

تقييدي الى حين وصولي الى بيتي وقد رآني مصمما على رأيي فاضطر الى تحقيق رغبتي على ان يصحبني ولا يفارقني حتى اقضي هذه الفترة التي اريد ان استجم بها قوتي وهكذا سرنا الى المسجد ،

وللمسجد بابان احداهما وهي الباب الكبرى واقعة امام الرصيف العام من جهة النهر ؛ والاخرى تقع خلف المسجد وعلى الزقاق الضيق الذي يتصل بالشوارع الداخلة ؛ وكانت تلك الجهة خالية التعمير الا من بعض دور متباعدة فصممت على ان الج المسجد من الباب الكبيرة واخرج من الباب الصغيرة والله خير الحافظين ،

وما ان قاربنا مسجد النبي يونس حتى دخلت قبل صاحبي وتركته يعالج انزال الامتعة والهدايا التي جئنا بها الى اهلي ؛ وكان كما اردت ، فما ان اندمجت بين الداخلين حتى عطفت على الباب الخلفية واطلقت ساقي للريح وليكن بعدي ما يكون .

ها انا ذا الآن أيمم وجهي نحو الغرب فكأني اريد

[قضاء طويريج] اما الفلاح فلا ادري ما الذي صنع به الدهر ويكفيني ان قد اصبح لدي من النقود [منكنتان] ؛ اما الوقت فكان آخر النهار ولم تبق الا ساعة او اكثر قليلا لغياب الشمس وانا سائر في هذه الطريق المحاذية للنهر أرى السفن تمر منحدرة الى الكوفة فاود لو تيسر لي ان اعود معها لاقضي سواد هذه الليلة في الكوفة ثم اغادرها صباحا ولكن الخوف الذي كان يتمثل لي في شوارع الكوفة وحوانيتها وعلى وجوه الناس كان يمنعني من تنفيذ هذه الفكرة ، فكنت اظن ان الجميع يراقبونني وان الجميع عيون علي وانني ان رجعت الى المدينة لاشك اني مقبوض وواصل الى ابي عاجلا او آجلا ، رضيت ام ابيت ؛ ولذلك كنت اخطو بحذر وخوف حتى من خيالي مبتعداً عن المدينة ؛ ولكن اين سأقضي هذه الليلة ؟

وتذكرت اخيراً ان هذه الليلة هي ليلة الاربعاء وان الازدحام يبلغ اشده في مثل هذه الليلة من كل اسبوع في مسجد [السهلة] فلماذا لا اعرج على طريق السهلة ومن وراء النخيل لاقضي هذه الليلة هناك

وترددت قليلا وقد بدأ ترددي هذا في خطواتي اذ لم انحرف عن الطريق قليلا حتى رجعت اليه ثانية ثم عدت ميل الى اليسار واقف حتى بدأت اشعر بارادة قوية تدفعني الى السهلة ركضاً ،

وبعد غياب الشمس بدقائق وصلت عتبة باب المسجد ولم اكد ارفع قدمي واجتاز العتبة الا ويد قوية تمتد الى زندي فتقبض عليه قبضة ليس له انفلات منها ، والتفت واذا بالوالد !

يالله ما هذا ؟ لقد حفرت قبري بظفري ... انها لصدفة غريبة ان يسوقني الحظ الى يد والدي من حيث اردت الابتعاد عنه ، لقد كان بعبادته لربه اقرب الى مناه مني بابتهالي ودعواتي الى ربي فهو لم يقصد السهلة الا ليركع ويسجد كما هي عادة القديسين والاخيار في كل اسبوع مثل هذه الليلة وانا لم اقصد السهلة الا لاهرب وانجو

لقد بكيت ولـكن والدي طمني واكد لي انه سوف لايمد لي يداً بشر وانه قد عفى عني ورضى وسرت معه نؤم

مقامات الأنبياء حتى اذا فرغ من عبادته سار بي الى حيث مجمع من رفقائه الذين انتصبوا حول (السماور) ومجلس الشاي ولم يكد يراني احد أصدقائه إلا وانهال علي بالتقريع وراح يسمعني من قوارص الكلم ما ملأ أذني رعباً ثم قال :

احضر لك والدك حزمة من الخيزران الذي يهري به جلدك ولو كان يعود امرك الي وكانت لي عليك يد لقتلتك شر قتلة ولرميت بجثتك الى الكلاب ،

لقد خفق قلبي هلعاً ووددت انا الآخر لو يكون امر هذا الرجل الي لالهبت جسمه بالسياط تشفياً من تعرضه بي وتحريضه لابي ، والتفت الى ابي لاقرأ نيته في وجهه فاذا بي أراه يشير الى صديقه بالصمت ؛

هنا علمت ان هذا اللطف الذي يتظاهر به والدي امامي ليس إلا من قبيل الخداع وان هذه الطلاقة وهذا البشر الزائف سينفجران عن ثورة لا يعرفها إلا من عرف الشدة التي رآها في ساعة غضب ابي ؛

ولكن بماذا تراني استطيع الخلاص؟ انا الآن في قبضة هذا الوالد والوقت حوالي الساعة الواحدة عربية ليلا فاذا حدثتني نفسي بالهزيمة فاين لي هذا المتسع من الرقابة ومن الوقت

وبعد ربع ساعة قلبت نفسي فيه تفكيراً وتأملا قمت وانا اتظاهر بالخروج الى بيت الخلاء وهو محل واقع خارج مسجد السهلة ؛ ولم اضع قدمي في خارج الباب إلا وغدوت راكضاً في طريق الكوفة ؛ وكان بعض الناس الذين يطلبون الجمع بين ثواب مسجد السهلة ومسجد الكوفة يخرجون في مثل هذه الساعة وبعد ان ينتهوا من طقوس السهلة فيقصدون الكوفة لتتمة (العبادة) وكانت البرية تموج بهؤلاء الراجعين الى مسجد الكوفة ولم يعسر علي الانضمام الى هذه الجماعة والسير ركضاً حتى بلغت الكوفة ورأيت من الصواب النزول ليلا الى [الجسر] لعلي اقضي تلك الليلة بمأمن من تعقيب والدي وتتبع اثري ؛ واشتريت لي رغيف خبز ومقداراً من اللبن الناشف ورحت اعدو قاصداً (الجسر) الذي لا يبعد

عن مسجد الكوفة إلا قليلا ،

كنت امشي وآكل وانا جد خائف من مصيري المجهول و صادفني في الطريق كلب ما كاد يراني حتى راح يعدو خلفي وبالرغم من كثرة المارين في الطريق رأيتني اخاف الكلب فاميل على الرغيف وارمي له بقطعة لايزدردها الا ورميت له بقطعة اخرى حتى انتهى الرغيف ولما ابلغ (الجسر) والكلب يلازمني ملازمة الظل وانا ارتعد من الخوف الى ان بلغت السوق ؛

قصدت مسجد النبي يونس الذي فارقته قبل ساعات واكتفيت تلك الليلة بماتبلغت به من كسيرة الخبز قبل التقائي بالكلب وبما كان معي من اللبن ونمت في المسجد تلك الليلة وجلا خائفاً ،

واستيقظت قبل طلوع الشمس على اصوات الملاحين الذين ينادون الركاب للسفر الى [طويريج] ورأيت من الحزم ان احشر نفسي بين ركاب هذه السفينة وان اخرج من

[الجسر] قبل ان تضيع الفرصة فان البقاء الى وقت متأخر سيمكن والدي واصدقاءه من اللحاق بي بكل سهولة وهكذا القيت بنفسي في حضن هذه السفينة وعند شروق الشمس كان الملاحون يتجهون بالسفينة نحو الغرب ويردد كبيرهم [هيان الله . هيان الله] وقبيل الظهر من ذلك اليوم كنا قد بلغنا الكفل ونزلنا في الجهة الثانية منه وكنت شديد الجوع فتيسر لي من اعطاني رغيفاً واحداً اذلم يكن حينذاك هناك غير كوخين فقط ليس فيهما من الزاد شيء وفي تلك الليلة كنا قد بلغنا (عوفي) وأنا لم آكل شيئاً غير ذلك الرغيف حتى وصلنا طويريج

الدرويش

لا ادري كيف عثرت على هذا الدرويش في طويريج فاني لا اذكر الآن ظروف ذلك التعارف جيداً بقدر ما اذكر ظروف سائر القضايا حتى التافهة منها وكل ما اذكره هو اني رأيته في الخان فرحت الهو بالتمعن في وجهه وهيكله وهندامه حتى

رأيتني انجذبت اليه بدون اختيار ولم تمر ليلتان على نزولي في (الخان) الا وكان قد تم التعارف بيني وبينه فاطلعته على قضيتي ووقفته على جميع شؤني وحبب لي هـذا الدرويش مرافقته قائلا انه سيعني بامري ويقوم بتربيتي فـلا ارى منـه الا الخـير ما دمت أعيش في كنفه وراح منذ ذلك اليوم يلقنني مبادي (الدروشة) ويطلب مني استظهار قصائد المديح وقصائد اخرى في التصوف ؛

ولم اكن اعرف قيمة هذا الدرويش ولا اعلم عنه الا انه درويش من هؤلاء الدراويش الذين يجوبون بلاد الله فينشدون المدائح ويقرؤن السور ليعيشوا ، حتى خرجنا من طويريج بعد ايام قاصدين كربلا وفي الجامع المتصل بصحن الامام الحسين عليه السلام يجلس هذا الدرويش فتلتف حوله طبقة من الدراويش وتحتفي به وتظهر له الطاعة ولم نلبث كثيراً حتى علمت ان لصاحبي هذا شأنا عظيما وصفة تشبه صفة الزعامة ولذلك كان يدعوه الجميع (بالمرشد حبيب) والمرشد حبيب

رجل طويل القامة بهي الطلعة ، صبيح الوجه ، كث اللحية حلو الحديث ؛ تعلو شفتيه ابتسامة تنم عن خلق متين رزين وصدر مفعم بالاسرار الروحية ؛ اما هذه الحفاوة التي يلاقيها من سائر الدراويش فهي دليل واضح على عظمته وعلو شأنه بينهم ثم هذا المجلس الخاص الذي يجلسه الدراويش بحشمة وادب دليل آخر على أن للمرشد حبيب مكانة عظمى في قلوبهم ؛ وفي الليل حيث يعود كل درويش من تجواله يضرب الدراويش حول المرشد حلقة ويبدأ المرشد بقراءة بيتين اوثلاثة ابيات من الشعر الصوفي ولا ينتهي من القراءة الا حيث يبدأ بتلاوة قسم من (الادعية) ثم يقص على الجميع قصة رائعة فيها شيء من الموعظة ومن تحبيب العزلة واجتناب الناس واخبار الانبياء وغير ذلك ،

اقمنا في كربلا ما يقارب من ثلاثين يوماً كان قد تغير فيها شكلي ، وهندامي ، وطبعي ؛ فقد ابدل المرشد حبيب جميع البستي بالبسة أخرى ووضع على رأسي طربوشاً اسود تعلوه

بلورة بيضا وأمرني بحمل كشكوله والمسير خلفه وقد حفظت
في هذه المدة القليلة كثيراً من الشعر العربي والفارسي الذي
لم اعرف معناه في ابتداء الامر ولكن المرشد حبيباً كان
يجتهد في ان يفسر لي بعض الغامض من هذا الشعر ويملي علي بعض
(الأدعية ، فاكتبها ليعطيها الى من يطلبها منه من الدراويش ؛
وخرجنا من كربلا الى المسيب ومعنا درويشان آخران
يسيران في خدمة المرشد حبيب ، ولم نركب غير ارجلنا ولم
نحمل معنا شيئاً من القوت اللهم الا مقداراً من السكر والشاي
ولزمنا طريق البساتين وقبيل الظهر جلسنا نتفيئ في ظل دوحة
من الاشجار القريبة الى بعض الاكواخ فارسل المرشد احد
الدرويشين الى البيوت ليجلب لنا خبزاً لقاء انشودة يتلوها
من اناشيده وجلس الدرويش الثاني يغلي الماء على النار ليعمل
لنا الشاي بينما رحت انا اجمع الحطب ، وكنا نسمع صوت
درويشنا يتعالى مع نباح الكلاب التي احاطت به من جميع جهاته
ولكنها لم تطق ان تشغله عن تلاوة نشيده ،

وما هي الا ساعة حتى تهيأ الشاي وعاد الدرويش يحمل بضعة ارغفة من الخبز وقليلا من الزبدة ثم امرنا المرشد حبيب بان نأتي له بنوع من الحشيش المعروف (بالخباز) كأدام آخر للغداء، وجلسنا جميعاً نأكل ؛

وبعد الغداء تناولنا الشاي وقام المرشد يصلي الظهر، وصلينا نحن الثلاثة ثم تناول [الطبر] وسار امامنا فسرنا خلفه ؛ وعند الغروب عرجنا على بيوت للفلاحين فبتنا ليلتنا عندهم مأنوسين باحاديث الدرويش حتى اذا كان الصباح اتجهنا الى المسيب ونزلنا في (خان) كبير وجدنا فيه درويشاً آخر ما كاد يتعرف بالمرشد حبيب الا وركع امامه وطلب منه البركة ، وفي المسيب نزلت للسوق لاول مرة انشد ما حفظت من الشعر بناء على رغبة المرشد ؛ وعند عودتي الى الخان كنت قد جئت معي ببعض الدراهم التي حصلت عليها من طريق الانشاد وسلمتها للمرشد ؛ فقال : « انت الآن كالغصن الرطب ياولدي فاذا عدلته بقي معتدلا الى الابد لذلك يهمني

كثيراً ان اطلب اليك بان تحتفظ بهذا المبلغ للحاجة واياك ان تبذل شيئاً آخر ما دمت تمتلك هذه النقود لئلا تعود نفسك على الحرص فيفسد طبيعتك ويبعدك عن الله !! وهذا انا سأبيح لك بان تنشد الشعر وان تحدث بما تحفظ على ان لا تتقاضى شيئاً من الناس الا اذا دعتك الحاجة لذلك » ومد يده هنا الى جيبه فاخرج لي [منكنة] واحدة ثم قال :

« ثق انني لا املك غير هذه المنكنة الواحدة الآن بعد ان اشتريت لك هذا اللباس ولا اسمح لنفسي بادخار مبلغ يزيد على هذا المقدار على الدوام وقد عشت طول عمري على هذا الحال وسأقضي البقية الباقية دون ان اجد نفسي مفتقرة الى المال (فالارض لله يرثها عباده الصالحين) والعالم كله ملك العظيم القهار ، الجبار المتعال ؛ واينما سرت فستجد كفاف العيش ، واينما حللت فسترى حاجتك مقضية حتى يرد الله هذه الروح اليه ؛ وحتى يعيدك سيرتك الاولى » !

رد الفعل

لم افهم تماماً ما كان يقول لي المرشد حينئذ ولكن كلماته كانت تظل راسخة في ذهني بل لعلها كانت تكون سبباً لاثارة التفكير في نفسي

لماذا لا يجوز ان يدخر الانسان شيئاً ؟

لماذا لا يجوز ان يدخر اكثر مما يحتاج اليه ؟

لماذا يجب ان يقنع ويرضى باليسير من العيش ؟

ولعلي قد سألت المرشد غير مرة عما يجول بنفسي ، ولعله قد اجابني في حينه باجوبة لا اذكرها الآن ولكني اسمع صداها واعيها من نفسي التي اصبحت تحكي نفس هذا الدرويش.

لقد قال لي المرشد انه لم يكن درويشاً في اول عمره وانما كان طالب علم في خراسان وقد قرأ شيئاً من العلم في شبابه وتفقه في الدين ثم مال الى الدروشة وكان معظم السبب في هذا الميل يعود الى ماقرأ من الكتب الصوفية والى الحادث الخاص الذي جرى له

قص علينا هذه القصة ونحن في الكاظمين وفي ليلة من ليالي الخريف التي يطيب فيها الهواء فيسبغ على القصة روعة يبقى أثرها الى الابد ؛ فقال :

كانت لأبي - قبل ان يتزوج بامي - إمرأة عاش معها بضع سنين من غير ان يرزق منها بمولود وكان كلما فكر في زواجه من امرأة ثانية تذكر حب زوجته هذه له فخاف من ان يكون قد قابل حبها بالاسائة ان هو مكن نفسه من تحقيق رغبتها وانزل عليها الضرة ، اضافة الى ان زوجة ابي لم تترك وسيلة من الوسائل الا واتخذتها للحيلولة بين والدي وزواجه من امرأة اخرى ؛ وأخيراً طغى عليه شعوره الجنسي وراح يفتش له عن امرأة عسى ان يرزقه الله منها بولد يمتع به عينيه في حياته ويحيي له ذكراه في مماته حتى عثر بأمي ؛

لا تسل عما عملت زوجة أبي فقد اقامت الدنيا واقعدتها ولما لم تفز بطائل في جميع حركاتها رضخت مكرهة ؛ واستسلمت لحكم الاقدار ؛ وعاشت مع امي في بيتها . وشاء الله ان يرزق ابي

مولوداً ذكراً ولكنه لم يلبث ثلاثة ايام الا ومات بمرض لم
يعرف من اعراضه شيء غير بكاء الطفل المتواصل ثم ولدت
له إبنة فماتت بنفس المرض الذي اعترض اخاها البكر، وهكذا
غدا الطفل لا يولد اليوم الا ليموت غداً او بعد غد بلا سبب
معلوم، حتى مات لامي ثمانية اطفال على هذه الصورة واصبحت
امي تعتقد كل الاعتقاد بان السر كله كامن في الارض
فلابد وان يكون للجن دخل في القضية ؛ لذلك ما كادت
تضعني انا المولود التاسع الا وطلبت من القابلة ان تحملني من
الارض وتضعني في هذا المرفع الكائن بين الجدارين والذي
قد طرز بكتابة التعاويذ وكتبت حوله الآيات القرآنية واتخذت
فيه كل التدابير الروحية فمر الاسبوع الاول بسلامة وتلاه
الاسبوع الثاني وعين امي ساهرة علي يكاد لا يغمض لها جفن
حتى قامت الام من فراش النفاس

وكان الذي يسترعي الانتباه ويبعث الاطمينان الى القلب
هو هذه الصحة التي كانت تتجلى في نموي يوماً بعد يوم وقد

وفى أبي كل نذر من نذوره وكما اوجب على نفسه من أداء ،

وعند ما بلغت سني الحبو واجتزت دور الحضانة لفت

نظر اهلي هذا العيب الجسماني البادي على يدي اليسرى فقد

وجدوا انها لا تتحرك حركة طبيعية ولا تدور كما تدور اليد

اليمنى فهي يد ليس فيها من صفات اليد الا الهيكل المنحني

قليلا كما ترون (واخرج يده اليسرى فارانا إياها فاذا بها

كما وصف) ومع كل هذا فقد كان الفوز في سلامتي عظيما لابوي

وكان جميع من في البيت يدللني ويشتري لي الراحة والهناء

باغلى الاثمان حتى زوجة ابي وضرة امي فقد كنت اشاهد

منها حنواً غريباً قد يضاهي حنو امي ولما كنت قد عشت ببركة

الادعية والتعاويذ فقد نذرني أبي لله ومهدلي طريقة دراسة

الدين وخصني منه بعناية فائقة لانني كنت وحيده وفلذة كبده

التي كان ينتظر ان يراها ماشية على الارض منذ عهد بعيد

وشببت وتوغلت في دراسة الدين ومات ابي فحزنت

عليه زماناً . وماتت امي فكان موتها سبباً لان يريني الدنيا

سوداء قاتمة ويغير شيئاً كبيراً من عقيدتي فيدعني شخصاً آخر لا ارى اللذة الا بالبكاء ، ولا السلوان الا باعتزال الناس ؛

ولم يبق في البيت الا زوجة ابي العجوز التي كلما رأتني سحت عيناها الدموع سحا وبالغت في حنانها ، ولقد خدمتها اكثر مما خدمت امي وابي لا سيما حين بلغ بها الكبر هذا المبلغ فلم يجعل لها احدا يعني بامرها غيري ؛ ولقد شكرتني غير مرة على العناية الفائقة التي اوجهها اليها وطلبت مني الغفران مرات فلم افهم المقصود حتى جئتها ذات يوم وهي محمومة فقالت :

هل اصدق انك تغفر لي ذنبي اذا وقفتك على جريمتي ؟

فاجبتها انك امي وثقي انني لم احب امي بقدر ما احببتك ، وخدمتي لك خصوصاً بعد ما كف بصرك تشهد على مقدار احترامي لك فاي ذنب يكون للام بحيث لا يطيق ان يغفره لها الولد المطيع المخلص ؟

لقد بكت ماشاء الله ان تبكي وقالت والعبرات تخنق صوتها :

لقد كنت ضرة لامك وكانت غيرتي شديدة بحيث لم

اطبق اتباب عليها فكانت كلما وضعت مولوداً جئت بابرة من الابر وفي غفلة من هذه الام كنت اغرزها في رأس الطفل الطري الذي سرعان ما كان يموت ؛

اما انت ياولدي فقد كانت امك جد ساهرة عليك ولم تتسن لي الفرصة الكافية لقتلك بهذه الصورة الا بعد رجوع امك من الحمام وفي الحين الذي كانت جمجمة رأسك قدقويت فلم تجد معك الوسيلة وعبثاً رحت اضغط على الابرة في رأسك وانت تصرخ وتتلوى ؛ ولما يئست وخفت ان تفوتني الفرصة سدى وبدون جدوى عمدت الى يدك اليسرى فسحبتها بقوة حتى اصيبت بالخلع !!

ودمعت عينا المرشد وسكت قليلا ثم قال :

هذا هو الحادث الذي سبب لي ترك الدنيا ؛ هذا هو الذي غير مجرى حياتي فجعلني كما ترون اليوم ... وصير الدنيا كلها سوداء في عيني .

لقد مر الآن اكثر من عشرين سنة على هذا الحادث

ولكني لم استطع ان انساه رغم ما ابذل من جهود للحيلولة بيني وبين هذا التفكير وقد ماتت زوجة ابي بعد أعترافها هذا باربعة ايام والله يشهد انني ما ازددت بعد أعترافها الا عناية بها، ورعاية لها، حتى قبرتها بنفسي ، وحثوت عليها التراب بهذه اليد اليسرى التي تركتها لي كتذكار ثمين ، ومنذ ذلك اليوم ما عدت اعتقد ان هذا الوحش الذي يسمى إنسانا سيستطيع يوماً ما ان يخرج من وحشيته وان يتغلب على الهمجية الخفية التي تظهرها لك اعماله بين كل فترة واخرى ،

وقد وجدت سلواي وراحتي في قراءة هؤلاء الذين ادركوا شيئاً من الحقيقة فاعتزلوا وعاشوا عيشة فردية بعيدة عن الناس ، بعيدة عن الضوضاء الاجتماعية، فكانوا لانفسهم اكثر مما يجب ان يكونوا للمجتمع او قل انهم كانوا بهذه العزلة اقرب الى الانسانية وابعد عن الوحشية ،

١ - نمو الحس

٢ - الركون لجمال الروح

كل هذه القصص والمواعظ والحكايات كان لها تأثير على نفسي المتمردة الخشنة اليابسة وقد وجدت منها ميلا خاصا الى الاصغاء والتفكير خصوصاً بعد ما باشرت بدراسة النحو والصرف عند المرشد حبيب فرحت كلما وقفت على مثل من الامثال التي تجيء عرضاً في النحو وفي غيره وقرأت قسما من الأحاديث اطيل التفكير ولربما فهمت من الحديث عكس ما يراد منه فناقشت المرشد بكل حرية وجرأة ؛ اما هو فكان يبدي سروره لمناقشتي حتى وان خالفت رأيه ؛ وطالما نعتني بالدرويش الذكي او الدرويش الفطن ؛

سألت مرة الدرويش حبيباً قائلا : انني اكاد لا افهم معنى تسبيح الشجر وترتيل الحجر فهل للجماد لسان يتكلم ؟ وهل

بمقدور احد - لو جاز لنا فرض تكلم الجماد - ان يفهم ماتقول الغصون وينشد الحصى ؟ فابتسم وقال :

اما انا فلا افهم منه الذي يفهمه غيري وعندي ان في صمت هذا الحجر وسكون الجماد معنى يمكن ان يكون اكثر بلاغة من الترتيل والانشاد الذي تريد أن تسمعه انت باذنك ؛

فكل ما في هذا الكون - من جامد وصامت - ناطق بان هذا العالم كله وحدة لا يتلاشى جانب منها الا ليجيء جانب آخر ؛ اما الله عز وجل وعلا فهو سر هذه الوحدة ، السر الذي لا تدركه الابصار ولا البصائر ؛ اوجد هذه الكائنات من عناصر مختلفة فادمجها وحبكها حبكا متقناً ثم إذا بها يذوب بعضها في بعض وتعود كلها لعنصر واحد

افرأيت كيف ان هذه المخلوقات التي تحسبها قد خلقت من عنصر آخر غير عنصرك تعود في الاخير فتنضم الى عنصرك ثم تلف معها انت فاذا بهذا الجمع كله وحدة واحدة لا تعرف لها صبغة معلومة ، ولا لونا ظاهراً ولا اي شيء من

الفوارق غير الجمود، والصمت ، والسكون، وهناك فقط تقف على
كل حجر وكل مدر فتستوحي منه الذكر والانشاد والترتيل
لانه لم يعد يبدو في عينك حجراً ولا طيناً كما خلت اولا وانما
هو بعض هـذه الكائنات التي كانت تحكي وكانت تنطق
وكانت تعمل يوما ثم جعلها الله حيث ترى !!

تأملت كثيراً فيما قاله المرشد حبيب وآمنت بقسم من قوله
ولم افهم قسما آخر في حينه ؛ ثم انكرت عليه الباقي فلم يرد علي
باكثر من ان هذا العقل ياولدي يشبه البذرة التي لا تستطيع
ان تؤاتي أكلها الا بعد زمن تنجم خلاله من الارض وتنمو
ثم تبسق ثم تثمر وتنضج ؛ وها انت ذا تحتاج الى زمن طويل
لكي ينضج فيه عقلك

نحن الآن قد اجتزنا حدود بلادنا ودخلنا بلاد ايران
من جهة « جبل قلي خان » وينوي المرشد حبيب ان يزور
خراسان ويصحبني معه الى بلاده ولكن جودة المناخ وطيب
الهواء في هـذه المنطقة قد جعـل المرشد يتثاقل في حركته

ويسير رويداً رويداً اضف الى هذا أنني وجدته حين يزمع النية على ان يقصد جهة من الجهات لا يعني بالوقت ولا يهتم بالزمن فاينما طاب له الهواء ولذله النزول عرس هناك والقى عصاه فلا يقوم الا وقد ملت نفسه الاقامة ،

كان اذا ما حل العصر تناول المرشد هذه المجموعة الضخمة من الشعر التي كان يحرص عليها كثيراً هي وكتاب آخر وكلاهما مخطوطان فينزل الى سفح الجبل القريب من مضارب البيوت ويأمرني هناك بغلي الشاى بينما يلقي بنفسه على المرج الاخضر ويطلق صوته في الفضاء فيرتل ابياتاً حكمية من الشعر العربي والفارسي

ولقد كان لصوته ونبرات النغم الخاص الذي ينغم به الشعر عند تلاوته وقع جميل على نفسي كما ان للمعاني الغزيرة التي تطفح بها هذه المجموعة الخطية اثراً خاصاً في تكييف قواي التفكيرية؛ واتذ اقمنا شهراً كاملا ونحن نتنقل بين هذه المضارب والقرى الصغيرة في منطقة (الخان) الواسعة الكبيرة

اما هنا فلم نفعل ما كنا نفعله للحصول على طعامنا اليومي في المدن وسائر الجهات ولم ننشد الشعر طلباً للغذاء وانما قد كفانا ذلك التجاء القرويين الى المرشد وطلبهم منه التعاويذ والادعية لمختلف الحاجات ازاء ما يفرض عليهم هذا الدرويش ولم يكن يفرض عليهم شيئاً غير مقدار قليل من السكر والشاي في القرى والخبز والعسل والجبن في مضارب الخيام ؛ وكان يجتهد في ان لا يزيد طلبه على الحاجة اللازمة ،

هذه امرأة تأتي المرشد بفرخ من الدجاج وتطلب منه لقاءه ان يكتب لها دعاء تكسب به حب زوجها فيمسك الدرويش القلم ويكتب على ورقة صغيرة كلمة واحدة هي (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم يناولها للمرأة ويقول لها ان زوجك سيعبدك الآن وسترين مفعول هذا الدعاء واثره اذا انت استطعت ان تهيء لزوجك وسائل الراحة ، واذا تمكنت ان تخدميه خدمة صادقة وتريه شيئاً كبيراً من عنايتك ، اما هذا الفرخ فأرجو ان تبقيه عندك حتى يكبر وحتى امر بك يوماً فتعطيني اياه كبيراً

وتنصرف المرأة فرحة مسرورة

وجاءه ذات يوم قروي يطلب منه ان يبارك له بقرته الحلوب ويقول له انه لا يملك غيرها ويعرض عليه مقداراً من الجبن فيأخذ الدرويش كفايته من الجبن ويكتب له (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم يقول له وهذا الدعاء يتطلب منك ان تعني بعلف بقرتك ونظافتها وسقيها في المواعيد المعينة وان لا تجور عليها كثيراً في الحلب فينصرف القروي شاكراً داعياً للمرشد بالخير

١ - قراءة افكار

٢ - الارشاد عن طريق الخداع

وذات يوم ونحن لا نزال نتنقل بين ربوع هذا الجبل الواسعة اذا بشخص من اتباع الخان ينزل من على ظهر فرسه ويأخذ يد الدرويش فيقبلها وينحني على يدي ان الآخر ويلثمها ايضاً ويخبر المرشد بان الخان قد بعثه ليدعونا اليه وقدم فرسه

للمرشد ليمتطيها ؛ اما المرشد فقد اجاب الدعوة ولكنه لم يوافق
على ركوب الفرس بل فضل ان يمشي راجلا رغم توسلات
الرسول الشديدة ورغم الالحاح حتى اضطر الرسول الى
ان يدعوني انا للركوب ما دام قد فشل في حمل المرشد على السير
راكباً ولكني انا الآخر لم اوافق ايضاً ورحنا نتسلق الروابي
نحن الثلاثة ماشين على ارجلنا فقد جارانا هذا الرسول وأبى
الركوب وغدا يسحب فرسه ويسير من خلفنا حتى اشرفنا على
منازل (الخان) هناك نزلنا على الخان ضيفين عزيزين وفي
منتصف الليل دعى الخان المرشد الى مقره الخاص وطلب منه
ان يكشف له عن بخته ويحدثه عن نصيبه واخبرنا الخان بان
الشاه قد بعث اليه يهدده ويتوعده ويطلب منه ان يدفع الى
حاكم كرمنشاه الشخص الذي لاذ به ولجأ اليه لذلك فالخان في
حيرة من أمره لا يدري ماذا يخبئه له القدر ؛ ولا يدري أية
وسيلة أنجع وانفع ؟ أيتمرد على الشاه ولا يدفع هذا اللاجى ؟
ام يغض الطرف عنه ويسكت ؟ وهذا ما اراد ان يفهمه من

كشف البخت وحسب المستقبل عند المرشد ،

اطرق المرشد برهة ورفع رأسه بعدها وقال :

ـ وهل ان هذا اللاجئ لايزال موجوداً هنا ؟

اجاب الخان انه لايزال عنده ...

فقال وما الذي يمنعك من تسليمه للحكومة ؟

قال : لاشيء غير اني اخاف ان اظهر بمظهر الضعيف امام قوة الحكومة فلا تعني بامري بعد هذا ...

قال : اذا كان هذا كل مالديك من عذر فالطالع يقول انك فاشل لامحالة وان ما يبدو لعينيك نجاحا يعتبره الطالع خيبة ؛ لذلك فلرأي ان تدفع هذا المجرم الى الحاكم بصورة مقتولة فان عصيانك سيحدث انشقاقا ربما ذهب بسببه كثير من النفوس البريئة ، وها انا ذا اعود الى طالعك لأرى ماذا يقول :

وهنا مد المرشد يده فاخرج قلما وبدأ يخطط به بضعة مربعات وخطوطاً متقاطعة ويكتب في كل زاوية حرفاً من الحروف

الهجائية ، ثم انحنى على الورقة يشبعها تأملا وتفكيراً ورفع رأسه قائلا :

لما كنت ياحضرة الخان في السن الخامسة من العمر اعتراك مرض خطر كاد يقضي عليك وحتى يئس منك اهلك ولم يفد معك علاج الأطباء وانتهى امرك الى رجل انقذك بتعويذة من التعاويذ فهل هذا صحيح ؟

قال الخان : اللهم بلى فهكذا حدثني اهلي ...

قال : ولما بلغت الثامنة من العمر فقدت اسرتك عضواً كبيراً من بينها قلب لكم موته الحياة ظهراً لبطن فهل هذا صحيح ؟

قال : نعم فقد مات جدي وانا ابن عشر سنين او دون ذلك

قال : وان لديك في البيت حاجة قد احتفظت بها منذ زمن قديم وانت تحرص عليها كل الحرص فهل هذا صحيح ؟

قال : اللهم بلى ذالحاجة هي عصا أثرية تركها جدي لأبي

وتركها أبي لي .

قال - بقبل سنتين وبضعة شهور او قبل اربع سنين وبضعة شهور أو قبل ست سنين وبضعة شهور كنت تعاني عذابا وآلاما نفسية عظيمة لم يسبق لك ان عانيت مثلها .

قال - صحيح فقد مات احد اولادي قبل خمس سنوات ولا ازال اذكره للآن ...

قال المرشد اذا كنت قد آمنت بكل هذا وعرفت انني لا اخطأ في معرفة الطالع فارجو ان تؤمن بان الذي اشرت به عليك هو عين الصواب فارجع الجاني وسلمه الى الحكومة ولا تكن سبباً لنكبة قد تقضي عليك وعلى غيرك ؛

لقد قبل الخان يد المرشد ؛ وفي صباح الغد كنا نتسلق الروابي وننحدر مع الشعاب الى الاودية وهنا سألت المرشد هل لك ان تعلمني علم الطالع ؟

قال ستتعلمه قريباً وستعرف حقيقة الوجود عندما ستفهم مني ان كلما رأيت وشاهدت كان بعيداً عن العلم الذي تنشده ؛

انني لو اردت ان أنصح الذين يستنجدون بي في حل مشاكلهم لما لقيت نصائحي اذنا صاغية بقدر ما يلقى هذا الخداع الذي يسميه الانسان بكشف الطالع ومعرفة الاسرار ، واذا كان من الصعب عليك الايمان بان الذي رأيت مني كان خداعا ووهما فانه لن تصعب عليك بعد قليل محاربة هذه الاوهام والتبشير ضدها خصوصاً متى مد الله في عمري وجعلني قادراً على ان افرغ في نفسك هذه الحقائق ،

وسترى قريباً كيف ان هذا الذي تحسبه علماً لم يكن الا شعوذة أبى الناس الا ان يصبغوها بصبغة العلم ويقدسوها تقديسا قد يفوق تقديسهم الدين واي شيء آخر

الصلاة

لم اكن اشعر في ذلك اليوم بالمغزى الذي يشير اليه المرشد ؛ ولم اكن استطيع ان اتغلغل الى اعماق هذه الاسرار فهم حقيقتها ولكن هذه الجاذبية او الاشعاع النفسي الذي

يتجلى لي في تقاطيع وجه المرشد وفي نبرات صوته وحركاته - كما قلت مرات - كانت تجعلني مستسلما لما يقول ؛ مؤمناً بما يؤمن ؛ حتى وان لم افهم حقيقة الكلام كلها او بعضها ، وقد لفت نظري من المرشد شيء غريب جداً وهو الحاحه الشديد علي في التمسك بالصلاة في اوقاتها بينما كنت أراه يشيح هو بوجهه عن الصلاة مدة طويلة فلا يتجه الى القبلة ولا يذكر الله الا حيث يجيء ذكره في الشعر ؛

كثيراً ما فكرت في أمر المرشد ولكني كنت أحترمه واخشى ان اظهر له استغرابي واسأله عن هذا التناقض العجيب بين ما يعمل وبين ما يدعوني اليه ؛ فاذا كانت الصلاة خيراً فلماذا لا يواظب عليها هو ؟ وان كانت شراً فلماذا يدعوني الى هذا الشر وهو لا يسعى الا الى خيري وسعادتي ؟؟

بقيت اصلي طويلا وبقي هو يصلي حيناً ويقطع الصلاة حيناً آخر وظلت نفسي تتوق الى معرفة السبب وتود لو انها استطاعت ان تعرف الحقيقة، حقيقة هذا الامر إذن لاستراحت واطمأنت

والمرشد حبيب ذكي حساس يدرك من اقل اشارة كل شيء ويكتفي بالتلميح عن التصريح؛ فقد خبر الحياة وذاق حلوها ومرها ثم انه قد حصل على نصيب وافر من المطالعة وقراءة الكتب يوم كان طالب علم ويوم مال الى العزلة؛ وابتعد عن الناس ليقترب من نفسه؛ فقد عرف ما يجول بنفسي واستشف من نظراتي ما يبطن قلبي ويكن صدري من الشكوك ولكنه ظل صامتاً ولعله كان ينتظر مني البدء بالسؤال وعند ما يئس مني التفت لي ذات ليلة وبعد دمدمة طويلة قال :

ـ هل تعرف لمن تصلي ولماذا تصلي ؟

ـ قلت اصلي الى الله عز وجل ابتغاء مرضاته ...

ـ وهل ان الله بحاجة الى صلاتك ؟ وهل يناله شيء من النفع بهذا القيام والقعود ليسره ذلك فيرضى عنك ؟

ـ قلت ألم تؤنبني انت على اهمالي للصلاة ؟ وتطلب مني ان اتذكر أن [قرة عيني هي الصلاة] ؟ وانت ألم تؤكد لي ان [الصلاة عمود الدين] ؟ وانها « في اول الوقت جزور وفي

نهاية الوقت عصفور » فما بالك الليلة تتغاضى عن كل هذا وتتجاهل موعظتك كأن ليس بينك وبين ذلك الوعظ وشيج من الصلة ؟

ضحك الدرويش وحول عينيه من وجهي وراح يحدق في النجوم ثم التفت لي والضحكة لا تزال على شفتيه وقال :

ـ ومن قال لك انني قد تغيرت ؟ ومن اين عرفت انني امسيت غير ما اصبحت عليه ؟ انني لم اسألك لتقام عن الصلاة ولتتوانى في امرها ولكنني اردت ان اعرف هل انك تعرف الصلاة بحقيقتها ؟ وهل انت شاعر لماذا تصلي اذا صليت ؟ ولماذا لا تصلي اذا تركت الصلاة ؟ واني اربأ بك ياولدي ان تكون كهؤلاء العميان فتصلي دون ان تفهم سر الصلاة فهل فهمت الآن ماذا اردت ان اقول ؟

ـ قلت والآن أتريد ان اجيبك على سؤالك بلسان العقل ؟ انني لا ادري لماذا اصلي ...

ـ قال فانت اذن لا تزال غراً ، وانا اريد ان تفهم ان

الصلاة تنهى عن الفحشاء، واريد منك ان تسبر غور هذه العبادة وتعرف معنى نهيها عن الفحشاء ؛ وليس في ذلك من صعوبة اذا تأملت قليلا وأذا علمت ان بضع دقائق تقف فيها امام ربك لتسبحه وتذكره بالحمد ولتتجرد عن ذاتيتك وتتناسى شهواتك تكفي لان تجعلك انسانا كاملا يشعر بمسؤلية الانسان فيرق قلبه، ويحلو طبعه، وتحسن سيرته، ويكون عضواً ان لم ينفع احداً فلا يضر احداً ،

تذكر حينما تقف امام ربك ان الله لا يحتاج صلاتك هذه ولا يهمه من امرك شيء، وانما تقف امامه لتحسب نفسك ولتذكرها بوجائبها ومسؤليتها وما يترتب عليها من عدم مس حقوق الانسان، وعدم الاعتداء على اعراضهم، وعدم النيل منهم باللسان او اليد أو اية جارحة اخرى ؛

لمثل هذه ادعوك يا ولدي ولاجل هذا اريدك ان تصلي إلى ربك ومتى عرفتني جيداً يسهل عليك حينذاك ان تعرف لماذا اصلي آنا واترك الصلاة آنا آخر ؛

وهنا ابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

الست تفكر في امري منذ مدة وتريد ان تعرف رأيي في صلاتي ؟

قلت ـ بلى

قال ـ ليس بينك وبين معرفة ذلك الا حاجب خفيف جداً ستخترقه بعينيك يوما ما وتستشف الحقيقة التي تنشدها من ورائه واني اعدك وعداً صادقا بانك ستكون خيراً مني وستفهم من الحقيقة اكثر مما فهمت انا على شرط ان لا تعطي قيادك لعاطفتك المحضة، ولا لعقلك المجرد، فخير الامور ما يبعدك عن الافراط والتفريط ، وخير التفكير مايجد فيه الانسان اللذة البريئة لهذا القلب الصغير الذي يحمل مختلف النزعات المتضادة المتباينة التي لها كل الشأن في تقلباته ؛

١ – ماهية الارواح

٢ – الاتصال بالروح

في اثناء هذه المدة التي قضيناها بين القرى والمدن كنت قد شاهدت من المشاهد والاحوال ما جعلني اكون افهم مني قبلا في تعليل الحوادث وتحليل الاسباب ؛ فانا اليوم وعند ما يوجه لي المرشد حبيب بعض الاسئلة لا اجد في الاجابة عليها عياء وكلفة وحيرة كما كان يتفق لي من قبل ؛ وليس معنى هذا انني لم اخطأ في اجابتي ولم احد عن الهدف ؛ ولكن خطأي وانحرافي عن الصواب لم يقعا مني بتأثير العاطفة وكان هذا سبباً من اسباب مسرة الدرويش وارتياحه ؛

لم اذكر من كرمنشاه الا ان الملا الشيخ ابو القاسم النراقي قد دعانا الى منزله والاقامة عنده طول مدة بقائنا وكان بين الملا والمرشد مودة قديمة يرجع تاريخها الى عهد التلمذة

فاقمنا عنده ستة اشهر تركت في نفوسنا من الاثر الجميل ما لا اطيق وصفه ،

وهذا الملا رجل عالم فاضل جمع بين القديم والحديث فكانت تصله بعض الجرائد والمجلات العربية [كحديقة الاخبار] لخليل الخوري ومجلة المقتطف الدكتور صروف وكثير من الكتب العربية التي تصدرها حينذاك المطابع الكاثوليكية اليسوعية ببيروت ؛ وقد كانت بيروت يومذاك كالقاهرة اليوم في كثرة ما تطبع من الكتب العربية (وحديقة الاخبار) هذه اول جريدة عربية صدرت في سورية وعاشت اكثر من خمسين سنة على ما اظن واتذكر . والخلاصة ان الملا قد نال حظاً وافراً من العلوم الحديثة زيادة على علومه الدينية ، وكان يأنس كثيراً بمصاحبة المرشد حبيب واحاديثه . ولذلك كانت دعوته لنا للنزول في بيته تعبر عن شعوره تعبيراً صادقا ؛ اما السهرات واما المناظرات التي كانت تدور بين الملا وبعض الحاضرين والمرشد حبيب فمعظمها كان يدور حول مسائل علمية دقيقة

كنت اصغي الى اكثرها بشوق ولذة، وقد بقيت في ذهني
من تلك المباحثات صورة مجسمة لا ازال اتمثلها،
ففي ليلة من هذه الليالي تناقل الجمع الحاضر في مجلس الملا
خبراً فحواه ان امرأة قد توفيت ولم يعلم احد بخبر حليها؛ حتى
رآها زوجها في الحلم ليلة البارحة وسألها عن ذلك فاخبرته انها
قد دفنت حليها في مخزن الفحم وقد بحث اليوم عن الحلي
فوجده حيث اخبرته زوجته !! واتسعت هذه القصة حتى
انتهى البحث الى الارواح وتحضير الارواح وانتقال الافكار
اما الملا فمن المؤمنين بصحة تحضير الارواح وامكان
تجسدها وهو يعلل ذلك بعلل كثيرة ويستدل على رأيه باقوال
بعض العلماء الذين مارسوا هذا العلم وتتبعوا نتائجه؛ ولما اعترض
عليه المرشد في كيفية التجسد ادعى ان هيئة التجسد تتألف
من هيولى الوسيط الذي تحضر بواسطته الارواح ومن الحاضرين
الآخرين فتظهر بصورة جلية وقد قص من هذه الحكايات
الامثلة الكثيرة التي تشير الى تجلي الروح وظهورها وعزى

عدم نجاح الاستحضار في بعض الاحيان الى نقصان في كيفية التحضير او عيب في نفس الوسيط ،

قال المرشد حبيب : انني لا اكذب هذا فقط بل واني في اشد العجب ممن يعرض عن استعمال عقله وتفكيره ويفتح باب نفسه لقبول هذه المزاعم الموهومة ،

« ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي » فهذه الروح التي اشار اليها الباري عز وجل لم يستطع ولن يستطيع أحد ان يعرف عنها شيئاً غيره سبحانه وتعالى فهي اذا خرجت من الجسد صار من المستحيل على المرء ان يتحدث عن ماهيتها وما زالت في الجسد فهي ملموسة محسوسة بهذه العين حين تنظر ، وهذه الاذن حين تسمع ؛ وهذا اللسان حين يتكلم ، واذا حان لها ان تخرج من هذا القالب فليس هناك بالامكان الاتصال بها والتفاهم معها ولذلك كانت الآية الشريفة تشير الى ذلك ؛

ولقد ثبت ان معظم الذين قاموا بهذه التجارب - تجارب

استحضار الارواح ـ كانوا على شيء من السذاجة والبلادة اذا لم يكونوا مشعوذين ماكرين وقد اعلن احد المنكرين (الاميركان) بانه مستعد لدفع جائزة مالية كبيرة لمن يستطيع ان يثبت امكان التفاهم مع الروح بعد خروجها من جسدها على شرط ان يتولى الاشراف على عملية التحضير اساتذة جامعة كمبردج الاميركية وعلى الاثر تقدم امهر العلما واكثرهم خبرة في الاستحضار فكانت سخافة مضحكة ؛ اذلم ينجح هذا العالم في تحريك أي شيء بواسطة الروح وكان اعتذار علماء الارواح ان الارواح لا تحضر في مجمع لا يؤمنون بصحة علم التحضير !!

هذا إضافة الى ان التلاعب الذي ظهر عند اغلب الوسطاء قد كشف القناع عن هذه السخافة وصير هذا الذي يدعونه علماً عبارة عن فذلكة دجل يراد بها التسلية والضحك على ذقون البسطاء

انا رجل درويش ليس لي بالعلم اية صلة غير الاسم فاذا استطاع « الملا » ومن على شاكلته ان يثبت لي امكان تحضير

الارواح ، ويفند لي الآية القرآنية الشريفة في معرفة الروح فانا مستعد لان أقدم له كل ما يريد ويطلب ؛

ثم اني مستعد لكل نقاش معقول يبنى على البراهين المنطقية ، اما القصص واما الاحاديث فليس لها عندي اية قيمة تذكر ؛

ويعترض الملا النراقي ويروح يسوق القصص المختلفة التي من شأنها تأييد حقيقة استحضار الارواح وتجليها ويسأل الدرويش قائلا :

ـ بماذا تفسر هذه الاخبار التي تسمعها من فم الوسيط والتي تكشف لك بعض الحقائق مما لم يعرف احد عنها شيئاً غيرك ؟ من قبيل انك تسأل الوسيط عن امورك الخاصة فيجيبك عنها بحقيقتها ، فلو حدث لك مثل هذا فهل تظل كما انت الآن جاحداً حقيقة الاتصال بالارواح ؟ ثم اذا لم تشأ ان تعزو هذه الظاهرة الى الارواح فالى اي سبب آخر تستطيع ان تنسب هذه الحوادث ؟

تأمل المرشد قليلا واتجه بعد ذلك الى الحاضرين وقال :

.. ـ لي سؤال واحد اذا تلطفتم علي بالجواب اتسع لي المجال للاجابة على سؤالكم وتيسر لي ان اقول الحقيقة ، وهذا السؤال هو : هل ان الروح في جسدها اقدر على الظهور والتجلي بجميع حقيقتها ؛ ام هي في غير جسدها اقدر على ذلك ؟

سكت البعض ولم يجب ؛ اما الملا والبعض الآخر فقد اجاب ان الروح وهي في قالبها وجسدها اكثر إظهاراً لخواصها وماهيتها ؛ قال المرشد فما هذا الاختلاف اذن ؟؟ اذا كانت الروح وهي في الجسد لا تستطيع ان تقوم بكشف القناع عن المغيبات وتخبر عن المكنونات فكيف يتسنى لها ذلك بعد خروجها من الجسد ؟ وكيف يتأتى لها ان تقوم بكشف المعميات بعد ان تفقد مظهرها الملموس وجهازها الذي عرفت بواسطته ؛ وتجلت للعين وللحواس بهيكله ؟ ومن هذا يتضح لكم ان هذه المغيبات التي يتفوه بها الوسيط ليست من آثار الارواح وانما هي شيء آخر ينطبق بعضه على علم انتقال الافكار وينطبق شيء آخر منه على الصدفة ...

لقد طال الجدل ولم يستطع احد الطرفين ان يتغلب على الثاني ، ولما رأى الدرويش ذلك انتفض وقال :

احضروا لي غداً كرسياً مدوراً ذا ثلاث قوائم خشبية وسأبدأ أمامكم بتحضير الارواح واعلي حينذاك استطيع ان اضرب لكم مثلا عملياً في بطلان رأيكم او رأيي وتحل المشكلة وانزل هناك على عقيدتكم عن ايمان ورضى او تنزلون على عقيدتي عن كره او اختيار ،

بعد اربعة ايام من هذه المحاورة احضر الكرسي المطلوب واستعد الجمع ليقوم بهذه التجربة ليلا وقد اشترط الدرويش على الحاضرين ان يلازموا السكون وان يتجهوا كلهم الى هذا الكرسي ليروا كيف تتحرك هذه القائمة عن الارض وكيف تجيب على الاسئلة ؟

وفي الليل اجتمع الاصدقاء في غرفة صغيرة ومد المرشد يده الى المصباح فقلل من ضوءه حتى لم يبق منه الا نور ضئيل وامر أن يتقدم اليه اثنان من الحاضرين ويضعا ايديهم على

سطح المنضدة بحيث تكون كل قائمة تحت كفين من الاكف ووضع هو الاخر كفيه على القائمة الثالثة وطلب ان نلاحظ الدقة في وضع الايدي لئلا يقع الضغط على القوائم فتتعسر حركة رجل الكرسي

ومرت ربع ساعة سكوت لم نسمع فيها نأمة ولا حركة واذا بالمرشد خبيب يتمتم بكلمات لم نفهمها ويلفت نظر الجم الى القائمة التي ستتحرك ثم اذا بنا نشهد ارتفاع القائمة ثم عودتها الى الارض بحركة خفيفة بطيئة ولكنها واضحة جلية

وهنا سأل المرشد الروح :

ـ من أنت ؟

فتقف الحركة ثم تبتدي بالطرق وكل طرقة من الطرقات تشير الى حرف من الحروف الهجائية مبتدئة من الالف وراجعة اليه فحينما سأل المرشد الروح عن اسمه طرق ست طرقات ووقف ؛ ففهمنا انه يشير الى حرف (الحاء) ثم طرق اثنتي عشر طرقة وسكت ، ففهمنا انه يشير الى حرف السين ،

ثم تبعها بخمس وعشرين طرقة اخرى فعلمنا انه يريد حرف النون وهكذا تألف من هذه الحركات اسم (حسن) وكان هو الجواب

وبهذه الطريقة عاد المرشد يسأل ويجاب :

ـ اين انت الآن ياحسن ؟

ـ انا في ... في .. في ...

ـ في اي مكان ؟

ـ انا في .. في .. في

ـ في اي شيء ؟

وقفت الحركة وساد سكوت لم يعد يأمل احد فيه عودة الروح ثانية !

فالتفت الملا النراقي الى المرشد وقال :

ألم يكف هذا دليلا على صحة استحضار الروح ؟

ـ ان هذا دليل على بطلان تكلم الروح فلو كان هذا الذي يتكلم روحا وكانت قاعدة استحضاره علمية صحيحة

لوجدت ان الجواب كله كان صحيحاً ولا خبرنا هذا الروح عن مقره كما اخبرنا عن اسمه ...

قال الملا ولكن غيرنا استطاع ان يسترسل في حديثه مع الروح ويستفهم كل شيء دون ان تكتم الروح جوابا ، وسواء كان ذلك بطريقة الكرسي او الوسيط المنوم او الفنجان او غير ذلك من الطرق الاخرى ؛ والان قل لي لماذا تتحرك قائمة الكرسي فهل هذا من قبيل الصدفة او انتقال الفكر ؟؟

ـ لا هذا ولا ذاك وانما اجتمعت ارادتنا نحن الجالسين حول الكرسي فحركنا هذه القائمة دون ان نشعر بانفسنا ودون ان ندري بان الذي يحرك الكرسي انما نحن لا غيرنا ؛ ولذلك كنت تجد الحركة قد وقفت عندما اصطدمت هذه الارادات في تعيين محل هذه الروح

ضحك الجميع من هذا التعليل اما انا .. !!



١ـ بين الشك واليقين

٢ـ اعتزال واجتماع

وفي خروجنا من كرمنشاه كنا نقصد مواصلة السفر الى مدينة [قم] وكنا نقطع الطريق ماشيين وكلما شعرنا بتعب او عياء من السير حططنا رحالنا وقضينا من الوقت زمانا بالقرب من العيون وعلى سفح الجبال حتى اذا استعدنا نشاطنا عدنا الى الطريق نقطعه بحماس وشوق الى ان نصل احدى القرى فنلبث فيها ما شئنا ؛

وذات يوم ونحن جالسان الى جانب ساقية بالقرب من شجر الصفصاف لنستريح من وعثاء الطريق اذا بالمرشد يجلس على ساقية القرفصاء ويطرق اطراقة طويلة ثم يرفع رأسه ويقول :

ـ هل فكرت للآن من اين يأتي هذا الماء واين يذهب ؟

قلت ـ يأتي من الجبل ويذهب الى المزارع .

قال ـ هذا لا يكفي يافلان ... انني اعلم ان هـذا الماء يخرج من الارض ويعود الى الارض ولكن لأي شيء ولماذا ؟ والى متى يجب ان يبقى هكذا ؟ وانني اعلم ان هذه الشجرة قد ظهرت من بطن الارض لتعود الى بطن الارض ؛ وان هذا الحيوان قد ظهر من الارض ويعود الى الارض ولكن هذا العلم لا يجعل لتفكيري نهاية ولا يتركني هادئا...

ـ اذاً وماذا تريد ان تفهم بعد هذا ؟

ـ لا اريد الا الجواب الشافي اذا قلت سائلا : (لماذا ؟)

ـ انني لا افهم المقصود

ـ وانا اعلم انك لا تفهم المقصود ولذلك، لا اطلب منك اكثر مما ينتظر ؛ ومع كل ذلك فانا ادعو أمثالي الى ان ينصرفوا عن التفكير فيما لا يهتدون الى حله ؛ فمثل هذا التفكير لا يكون تحته طائل واذا كان ففائدته قليلة جداً بحيث لا ينتفع منها المجتمع الانساني ؛ ومثلها هذه السدم السماوية والنجوم اللامعة المترجرجة التي نراها في الليل فلا نعرف عنها شيئاً وإن أطلنا

التفكير وا كثرنا من التأمل . وما هذه الاراء التي نسمعها عن الفلك الا نظريات اذا صحت فليس في صحتها ما يفيد مجتمعنا الا النزر القليل الذي لا يستحق ان يكون ثمرة لتلك الاتعاب الفكرية التي يعانيها العلماء والمفكرون من الفلكيين ، وعندي ان امثال هؤلاء الرجال لو انصرفوا الى دراسة ناحية اخرى لكانت دراستهم أجدى وانفع بكثير مما نرى ، ومع ذلك ففي نفسي رغبة ملحة لمعرفة هذه الاشياء وللتفكير فيها ...

تأملت فيما قاله المرشد فبدالي ان الرجل بدأ يناقض نفسه لان مثل هذا التفكير يتنافى مع تفكيره الصوفي الروحي بكثير لذلك لم البث قليلا حتى سألته :

ـ اذا كنت تعلم بهذا فلماذا كنت تسأل عن مجرى الساقية ومنبعها وتكلف نفسك البحث عن حقيقة ذهاب الماء وايابه وخروجه من الارض وعودته ؟

قال ـ وهذا التأمل والبحث هما اللذان اوحيالي ما اوحيا فقد عجزت وعلمت اني لست انا العاجز الوحيد الذي لم يهتد الى

هذه الاسرار ؛ او قل ان مثل هذا السر حتى وان عرف وتسنى للمر ان يحيط به خبراً فماذا كانت تكون النتيجة ؟

اعتقد اننا لا نستطيع ان نضيف الى الوجود شيئاً جديداً ولا ننقص منه شيئاً ؛ فخير لي ولامثالي ان يقنعوا بما لا يقنع ، وان يؤمنوا بما تصل اليه عقولهم ولا يجهدوا انفسهم فان كل شيء سيبقى كما كان دون ان يستطيع هذا الانسان ان يحور فيه او يبدل ؟؟

قلت ـ ولماذا نحن الدراويش لا نفهم هذا ؟

قال ـ نفهم جيداً اذا كنا من الدراويش الذين اعنيهم انا ولكن لذتنا الروحية لا تجعلنا نترك هذا الوهم تركا صحيحاً ونختط لانفسنا خطة أخرى وان هذه اللذة التى بدأنا نشعر بها في تجنبنا الناس والانصراف عنهم مضافا الى العلل الاخرى التي تعرفها في المجتمع هي التي تبعدنا وتنحينا عن الاحتكاك والتدخل تدخلا فعلياً ،

لذلك فنحن ننشد الراحة بتجنبنا هذا من الناس او قل

ننزه افعالنا واقوالنا بهذا الاحتياط ، لأن الذين يشعرون بهذا الشعور قليلون جداً وليس بامكانهم ان يتغلبوا على المجتمع ويسيروه كما يريدون ، بل اننا نخاف ان يفسد المجتمع اخلاقهم متى احتكوا به واندمجوا فيه ؛

وانت ترى كم سخي صار حريصاً عندما فاجأته الثروة وكم داع الى رأي انقلب الى ضده باسرع وقت وفي اقل من لحظة ،

كل هذا يبرهن لنا على اننا لا نستطيع ان نطمئن من نفوسنا تماماً الا من قل منا وندر وهؤلاء لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً ؛ فلماذا تحاسبنا اذن على هذه اللذة الروحية التي نطلبها في العزلة ؟ ولماذا تؤنبنا على فعل لا نريد منه الا تخفيف الشر عن البشرية ؟

نعم اننا لا نستطيع ان نفيد المجتمع بعزلتنا هذه الفائدة التي تنتظر من العضو العامل ، ولكننا متأكدون باننا لم نلق على هذه النار المضطرمة حطباً ، ولم نزد في موقف الانسانية

حراجة ، ولقد قنعنا من دنيانا بهذا الوهم الذي رحنا نفسره بمختلف التفاسير . والذي رأينا فيه راحة القلب بابتعادنا عن الشر والاذى ،

الطب والتدجيل

وفي مدينة (قم) مرض المرشد مرضاً شديداً استطعت ان اختبر اثناء مرضه مقدار اخلاصي له وحبي اياه فمكنت اقوم بتمريضه خير قيام واسهر على راحته طول الليل ؛ وكان له في [قم] من المعارف والمعجبين به اشخاص كثيرون لم يألوا جهداً في القيام بكل ما يضمن الراحة لي وله فكانوا يحضرون له وصفات كثيرة من العقاقير والأدوية فيرفضها ولا يقبل منها شيئاً ؛

انه يقول ان الطب لايزال في كثير من احواله دجلا يعجل بالانسان الى الهلاك فهو لا يؤمن الا بالطب المادي الجراحي الملموس والا بمعالجة الامراض المكتشفة المعروفة

وما بقي من الامراض ـ وهي الاكثر ـ يجب ان يتوقى فيها الانسان المعالجة ؛ وخير علاج عام ـ على ما يرى المرشد ـ هو الوقاية والعنايه التامة بالاكل والشرب والنظافة ؛

وناقشه احد اصدقائه ذات يوم وقد بدأت حرارة الحمى تتضاءل ودب في نفسه الانتعاش ـ قائلا :

ـ ومن اين لك ان تميز بين الدجل وغير الدجل في المعالجة ؟

قال ـ من اختلاف الوصفات فلو كان الداء الذى يشكو منه المريض معلوماً معينا مكتشفاً لكانت الوصفة واحدة عند جميع الاطباء ، الا ترى ان المصاب بالملاريا انى ذهب واين سار والى اي طبيب قصد لا يسمع اسما غير اسم الكنين واقسام الكنين ، ومعنى ذلك ان هذا المرض أمر مفروغ منه وداء قد اكشف دواؤه واثبت الطب حقيقته ولولم يكن كذلك لوجدت كل طبيب يصف لك شيئاً لاعلاقة له بوصفة الطبيب الآخر ومن المؤسف ان يكون الطب متأخراً جداً بالنسبة للعلوم الطبيعية الاخرى فان العلماء لم يكتشفوا للان

غير بضعة امراض فقط ، وما عدا هذه الامراض فلا يزال الطب فيها حائراً كحيرتنا في الموت والفناء ،

انا لا اعتقد ان شيئاً نافعاً للصحة العامة غير الوقاية :

اما قراءة الابحاث الطبية والالمام باعراض الامراض من قبل المجتمع فامر لاشك ان ضرره اكثر من نفعه ، لان مثل هذه الالمامة تدع الشخص عرضة لتزاحم الاوهام على رأسه ثم تسلب ارادته حتى تجعله كالعبد المطيع لاوهامه التي تصور له انه مصاب بالمرض الفلاني لان العرض الذي عرفه عن ذلك المرض قد بدأ يظهر عليه ؛ وازيدك اكثر من هذا ان قراءة الامراض والاطلاع على سير المرض كثيراً ما عجلت بالاشخاص واودت بحياتهم بسبب الواهمة التي قلما يسلم منها احد

تنحنح الصديق المناقش وبعد لحظة أورد عدة اعتراضات لم يبق منها شيء في بالي لعدم اهميتها وفي الاخير لم يوافق المرشد على رأيه هذا ولكنه لم يستطع ان يطيل الجدل ويستمر في المناقشة مراعاة لصحة الدرويش وابتغاء راحته ؛

بعد مدة كان الدرويش حبيب قد تعافى وتشافى تماماً وقد قال لي انه لم يمرض للان نظير هذا المرض الذي انتابه وانه اقل الناس ابتعاداً عن المرض وأكد لي انني انا الآخر سأكون مثله والدليل على ذلك هذه الصحة التي اتمتع بها وعدم معرفتي المرض طول هذه السنوات التي قضيتها معه ؛ ولما سألته عن السبب اخبرني بان للطبيعة يداً واثراً عظيمين في ذلك ؛ فالنور والهواء والسير على الاقدام وراحة الفكر ، والتمتع برؤية المناظر الطبيعية وتناول فنجان الشاي على بساط العشب ؛ والتأمل فيما خلق الله من جمال في كل دقيقة من دقائق الوجود كل هذا يغلق ابواب هذا الجسم في وجه المرض فلا يجعل له مدخلا للنفس ؛ وحتى العقل فانه سيسلم بهذا من جميع انواع الخطل والخبل ؛ ولذلك تجد الصحة عند الفلاحين من سكان القرى الذين يتيسر لهم ماذكرت اكثر مما تجدها عند سكان المدن وان كانوا من المؤسرين المترفين الذين يجري كل شيء وفق رغباتهم وامانيهم

قال ومن هنا تجدني اقيم في القرى اكثر مما اقيم في المدن وسنبارح بعد يومين مدينة قم الى خراسان وتتخلص من هذه المياه الثقيلة التي اعتقد انها كانت كل السبب في انحراف صحتي

وبعد يومين كنت تجدنا خارجين من هذه المدينة والمرشد يسير قدامي وانا خلفه منشدين : (له الاسماء الحسنى) وقاصدين الاستجمام وراحة القلب والنفس حيث يحلو لنا ان نجلس ونقيم

وفي عرض الطريق وجدنا فلاحا يسير وراء حماره المثقل بحمل الحاجات وكان فلاحا من اولئك الذين تبهرك طلعتهم ويعجبك نشاطهم ؛ فلسواعد منه مفتولة ، والعضلات ناتئة بارزة ، والخطوات التي يخطوها خطوات تثير في نفس رائيها الاعجاب والدهشة وتنم عن قوة تحكي قوة الخيل حين تضرب الارض بحوافرها ؛

دنى المرشد وبعد السلام والتحية سأله عن عمره فاجاب انه لا يقل عن الخمسين ولا يزيد على الستين ؛

قال له المرشد : وهل عرفت المرض للآن ؟

اجاب : لما كنت ابن اثنتي عشر سنة !!

وعاد يسأله : وهل تعرف لماذا ؟

لقد تمتم بكلمات لم نفهمها ثم قال : ذلك من فضل ربي ،

التفت الي المرشد قائلا : وهذا خير دليل على ان الرياضة تخلق في النفس قابلية الحياة وتجعل ايام المرء مليئة بالسعادة ؛

العمل المفقود

وفي ذات اصيل اممنا ناحية من احدى القرى الواقعة على جانب الطريق وقد ازمعنا النية على المبيت فيها

كان كل شيء في هذه القرية ساكناً في هذا الوقت ؛ فالمواشي لاتزال في مراعيها والرعاة في الحقول البعيدة ووراء الجبال وبعض النساء قد تركن بيوتهن دائبات وراء اعمالهن ،

في مثل هذا الوقت بلغنا القرية وكان الهواء بارداً بحيث لا يسمح لنا بقضاء الليل في الخلاء وكان لا بد لنا من ان نقصد بيتاً من هذه البيوت الطينية للمبيت فيه ؛

اما الآن فالوقت لايزال واسعاً فلماذا لانقصد هذا التل القائم على ضاحية القرية فنفترش العشب ؛ نعمل الشاي ونستريح ؟

قال المرشد ذلك وتوجه الى التل ومشيت انا من خلفه اجمع عيدان الحطب لعمل الشاي حتى اذا وصلنا التل كنت قد وضعت الحطب واتخذت من الصخور أثافي وضعت عليها ابريق الشاي واشعلت النار ، ولم تمض برهة الا وكان الشاي يغلي على النار وكان المرشد يتلو :

فيك يا اعجوبة الكون غدا الفكر

كليلا

انت حيرت ذوي اللب وبلبلت

العقولا

كلما قدمت فكري فيك شبراً فر

ميلا

ناكصاً يخبط في عمياء لايهدى

سبيلا

وصوت المرشد صوت شجي رنان يحملك شئت أم ابيت الى عالم خيالي واسع كأن يجردك من كل حس وشعور غير حس التأمل والشعور باللذائذ الطيالية ؛ ولقد سبق لي ان اشرت الى هذا الصوت وما يأخذ من النفس . ولكن اليوم حينما اعود لذكره فلأن تأثيره في موقفه هذا كان تأثير من يستهويك بالتنويم المغناطيسي الذي لا يترك لك ما تملك من ارادة وقوة؛ قلت للمرشد : من هو اعجوبة الكون هذا ؟

قال ـ انه الله عز وجل الذي عجز الملايين عن معرفته ويعجز الملايين عن ان يعرفوه ، الله الذي قال عنه العارفون :

تب علينا فاننا بشر ما عرفناك حق معرفتك

قلت ـ وماذا تنشد في الله عز وجل؟ قال ـ انشد العدل؛ اريد ان يسود الناس بعدله؛ فما عاث شيء في البشرية بمقدار ما عاث فقدان العدل ، ولولا هذا الذي ندعوه بحلم الله لرأيت كل شيء قد صار في موضعه ، ولما اعتدى احدنا على الآخر ، ولما غمط احدنا حق الآخر ، ان القوانين والانظمة البشرية

لتعجز أن تتغلغل الى الاعماق وتتوصل الى حقيقة المعتدين المكنونة في القلوب ولذلك لا يجدي شيء هنا غير عدل الله النافذ الى الدخائل والمحيط بالضمائر ؛

قل لي ماذا تعمل قوانين البشرية مع رجل لا يعترف بجريرته ولا يظهر مكنونه وليس هناك ما يثبت استدانته ؟ انني لا اعتقد ان هناك قوة تستطيع ان تقيم العدل بجميع حدوده غير تلك القوة الخفية التي ندعوها بالعدل الالهي

واذا رأيتني أنشد العدل في الله فلأن البشرية ـ لاسيما في هذا اليوم الذي تم لها كما ارادت من وسائل وما تطلبت من امان ـ لايزال ينغص هناءها فقدان العدل على وجوهه الكاملة ؛ واذا امكن للبشرية ان تتقدم في كل شيء فليس بوسعها ان تتقدم في قراءة الافكار ومعرفة الظالم من المظلوم بمجرد النظر الى وجهه ، لذلك فهي في امس الحاجة الى القوة التي تستكشف بها الكوامن ، واين ترى تجد هذه القوة الخفية الهائلة ؛ أليست هي عند الله ؟؟ ....

وعند الغروب مر علينا احد الفلاحين في طريقه الى القرية فسأله المرشد قائلا : هل لك ان تدلنا على بيت نقضي فيه سواد هذه الليلة ؟ فاجاب اذا كنتما قانعين بكسيرة خبز بارد وقعب من اللبن فدونكما بيتي فان الباب مفتوح على مصراعيه

شكرنا له هذه العاطفة وقمنا نسير خلفه حتى دخلنا القرية وقد أبدى تجاهنا من اللطف والعطف مالم اعهده من قبل في جميع القرى التي نزلنا فيها وبتنا فيها واقمنا فيها ؛ اما عشاؤنا فلم يكن خبزاً بارداً وقدحا من اللبن كما ذكر وانما كان عشاء فاخراً جداً بالنسبة لوضع الفلاحين ومعيشة القرويين ، وقد تناول معنا العشاء رهط من سكان القرية . وزارنا بعد العشاء جمع كبير وجلس المرشد يقص عليهم القصص الجميلة التى تتعلق بشؤن الفلاحة وقد افاض في الحديث وذكر للفلاحين ضروب النبات وغرائب الاشجار ؛ وحدثهم بان هناك نباتاً يشم منه النور ونباتاً يصطاد الحشرات والذباب بمجرد سقوطه على اوراقه المتهدلة فيطبق عليها اوراقه ويمتصها ثم تنفتح الاوراق

واذا بالحشرة مأكولة ؛ ثم وصف لهم بعض الاشجار التي تصطاد الحيوانات الكبيرة فلا يستطيع ان يمر بالقرب منها احد الا وتلتف اغصانها عليه حتى تتركه عظاما بعد ان تمتص دمه وتتغذى بلحمه ،

لقد دهش الفلاحون من هذه الاحاديث وظن بعضهم ان الدرويش يهزل في ابتداء الامر ولكن المظهر الجدي الذي ظهر به المرشد جعلهم واثقين بصدق اقواله ؛

١ـ النزهة

٢ـ العقاب قبل الجناية

٣ـ الصبر عند الشدة

وفي الصباح سار المرشد وقد رفع عقيرته بالنشيد وسرت انا معه مردداً لما يقول ولم نقطع ميلين او ثلاثة الا وشاهدنا فارسين بعد وان وراءنا ومذ قربا منا صاحا بنا قائلين : قفا !!

نزل الفارسان من على ظهر فرسيهما ودنا احدهما الينا وبدون سؤال وجواب لطم المرشد بضربة قاسية ألقته بعيداً عنه وهم بضربي انا الآخر فتهربت عنه قليلا ثم اخرج الثاني رشمة فرسه واوثق بها أيدينا وأمرنا ان نسير وراء فرسه الى حيث لا ندري ؛ بعد ان قاما بتفتيشنا تفتيشاً دقيقاً ؛

لقد عانينا كثيراً من المشقة بهذا النحو من السير الشاق اضافة الى ما لحقنا من التعب الذى بدأنا نشعر به من اول خطوة في الرجوع ، وقبيل الظهر اشرفنا على نفس القرية التي خرجنامنها واذا بالفارسين يقفان بناعلى نفس البيت الذي غادرناه صباحا وكان سكان القرية هناك قد اجتمعوا صارخين صاخبين كأنهم كانوا ينتظرون رجوعنا لشأن مهم ؛

وقبل ان يحلوا وثاقنا ؛ وقبل ان نفهم ما الخبر انهال علينا مضيفنا ومعه ابنه بالضرب المبرح والركلات الشديدة فلم نفهم شيئاً غير الصراخ في وجهنا ؛ ودنا منا « الشيخ محسن » فاوقف الضرب وابعد الجمهور ، وقال : . . . .

« لا ينجيكما غير الصدق ... خبرانا اين ذهبتما بالسوار والاقراط الذهبية ؟ » مفاجأة غريبة ، وحادثة من اعجب ما رأيت ، لقد فتشونا غير مرة فلم يعثروا على شيء ، فما هو سر هذه التهمة ؟ وفي اي وقت قد حدثت هذه السرقة بحيث كان الاتهام لا يعدونا نحن الاثنين ؟

لقد شبعنا ضربا ولكما وركلا وعبثاً كنا نحاول ان نبرئ انفسنا من التهمة بالقسم الغليظ ، والايمان المحرجة فهذا القروي لا يمكن ان يعدل عن رأيه اذا اقتنع بشيء ،

لله ما اشد الفرق بين الليلة الماضية بحفاوتها وجلالها وهذا اليوم الجهم المدلهم

ولما يئس اهل القرية ساقونا عصراً بنفس الكيفية التى جاء بنا الفارسان عليها الى قرية اخرى تقع وراء الهضبة المحيطة بمزارع هؤلاء حيث يسكن عالم هذه القرية الروحاني ، وعالم هذه القرية يدعى الشيخ محمد حسين وهو رجل لم يكتف بزعامته الدينية وحدها بل انه كان كثير التدخل في جميع الشؤن

فكان يسيطر على القرويين سيطرة الحكومة المستبدة القوية فيخشى الجميع جانبه ويحذر سطوته ؛

ولم نكد نصل الى الشيخ ويفهم من الفلاحين قضية سرقة الحلي الا وأمر خدامه بان يربطونا الى اسطوانة لا يعلم كم الف من الناس الابرياء قد ربطهم هذا الشيخ اليها قبلنا ؛ ثم طلب منا الاعتراف والا فهو يأمر خادمه بان يسلخ جلدنا كما تسلخ جلود النعاج ....

انهم يحملوننا على الاعتراف زوراً والا فالخدم حاضرون لقتلنا بمجرد صدور اشارة من هذا الشيخ الغشوم

لقد اقسم المرشد بالله وبمقدساته انه لا يعرف هو ولا اعرف انا عما يقولون شيئاً وانا اكبر من ان نلوث انفسنا بعرض زائل لا قيمة له في الوجود، ولكن هذا الشيخ ما كان يمتاز على القرويين بشيء فهو مقتنع وواثق باننا قد سرقنا الذهب وخبأناه في مكان لا يعرفه احد غيرنا ولذلك اخذت العصا تشتغل على جلدينا بلا رحمة ولا شفقة ؛

اقمنا تحت الضرب ثلاثة ايام كدنا نموت فيها ؛ ولما يئس الشيخ واصحابه بعثوا بنا الى طهران لتتولى الحكومة التحقيق معنا ، وكنا نبعد عنها نحو ثلاثين ميلا على التقريب ؛ ولم نصلها الا وكادت روحانا ان تزهقا ؛ فقد ارسلونا بعين الصورة التي اتينا بها ؛ فلايدي منا مكبلة بالحبال وحملنا وراء ظهرينا ؛ ونحن نعد وحينا وراء الخيل ونثب وثبات متقطعة حينا آخر حتى بلغنا « طهران » ؛

ولم يسألنا احد هنا عن ذنبنا ولم يناقشنا في قضية التهمة فقد كان الحكم حينذاك غريباً جداً وكنا لا نفهم من الحكم في ذلك اليوم غير اسم القانون فادخلنا السجن ونحن ننتظر رحمة الله وعدله ؛

وفي السجن جماعات كبيرة من المتهمين والمساجين من مختلف الطبقات وقد مر على بعضهم زمن طويل قبل ان يتحقق مصيرهم ، فدخلنا السجن ذاهلين ؛ اما انا فقد بكيت واما المرشد فقد ضحك ؛

سألت المرشد لم تضحك ؟

فاجابني وانت لم تبكي ؟

قلت ـ اني لم آلف للآن مثل هذا المصير ولم اجابه بمثل هذه القساوة ؛ وقد ضاع مني كلما كنت املك . .

قال وماذا كنت تملك ؟

قلت — انك قد حببت لي الحرية وجعلتها اثمن شيء في عيني وها انك ترى كيف قد فقدت الآن هذه الحرية فلماذا لا ابكي ؟...

قال — تأمل قليلا ، فالليل يعقبه النهار ، والزوبعة يعقبها الهدوء ، وكل ضيق له فرج، فلا تحزن ولا تهتم لشيء لانك ان فعلت ذلك، فقد جنيت على نفسك جناية لن تستطيع ان تزيل اثرها فيما بعد ،

ولهذا السبب وحده تراني اتلقى كل شيء بالضحك وبالصبر وبالهدوء الذي تشهد ؛ وأن ظهرك الذي تناولته العصا بالامس قد بدأ الآن يتناسى الضربات فما بال قلبك لا ينسى

ذلك ولا يتناساه ،

انقضى كل شيء فلا تفكر فيما انقضى، وسيمر كل شيء فلا تفكر فيما سيمر من خير وشر ؛ فذلك الساعة التي انت فيها

١- جبلة الاجرام

٢- العقاب الموحش

٣- الحظ

امسينا خمسة في زاوية واحدة من السجن انا والمرشد وثلاثة آخرون من المساجين ؛ اما احد الثلاثة فشيخ كبير قد اشرف على السبعين واما الثاني والثالث فهما في سن الكهولة ، وكان احد هذين الكهلين رجلا مستهزئاً بالسجن ولكن لا كاستهزاء المرشد فقد ذكر لنا انه قضى شطراً كبيراً من عمره في الحبس بحيث كان لا يمر عليه شهر في الخارج الا ويعود ليقضي شهرين او ثلاثة شهور هنا ..

اما الاسباب فلا يرضى ان يعترف بها هذا الرجل الغريب ويحاول في كل ما يسرده علينا ان يبعد عن نفسه التهمة فهو يقول : ان الناس لا يتركونه يسير لشأنه ولا يدعونه يأكل خبزه براحة واطمئنان ، فاذا حدثت سرقة في المحلة جيء به الى مركز الشرطة ، وان جرح شخص في السوق وكان هو ماراً من هناك صدفة قبض عليه البوليس ؛ وان تشاجر اثنان ورفعا امرهما الى الحاكم جيء به شاهداً ثم حكم عليه بكونه شاهد زور بينما ليس له يد في كل هذه التهم التي يوجهونها اليه ؛

ولقد اضحكنا هذا الرجل كثيراً خصوصاً عند ما بدأ يصف لنا التهم التي توجه اليه وهو بريء منها ، وقد شاهدت المرشد يضحك بملء شدقيه ويستحث الرجل على سرد قضاياه باسهاب واطناب ؛

اما الكهل الثاني فقد كان صامتا لا ينبس ببنت شفة ولما حركه المرشد لم يزد على ما قال : الحظ هو الذي ساقه الى هذا المصير ؛

وعند التفاتنا للشيخ أن انه طويلة وقال : هذا عقاب لذنب قديم فقد سبق لي قبل خمس وعشرين سنة واكثر ان شهدت على رجل شهادة حتمها علي ظرف خاص دعاني الى ان احيد عن الحق فجني بشهادتي على الرجل جناية كان من تأثيرها انها الحقت به ضرراً فادحاً وبقيت معذبا طوال هذه المدة الى ان اقتص الله مني بهذا اليوم الاسود فانا الآن ألاقي جزاء جريمتي السابقة ، شهادة بشهادة ، وقد تهيأ من يشهد علي اليوم زوراً وبهتاناً كما شهدت انا فيما مضى ؛ والحق ان الله لن يترك الجاني دون ان يقتص منه ان لم يكن عاجلا فآجلا ،

وهنا تكلم الكهل الصامت فقال : أؤكد بان القضية لا تعدو الحظ ابداً فلمرء حيث وضعه حظه ، وليس هناك من علاقة بين ما يقول الانسان ، وبين مايعمل ، وبين ما يصير اليه ؛ فكم صادف ان يؤاخذ الانسان بجريمة غيره دون ان يعلم السبب ودون ان تكون له يد فيها ؟

ضحك المرشد مرة اخرى وقال : ما كنت اؤمن قبلي

هذا اليوم بشيء يسمى بالحظ ؛ اما اليوم وبعد ما شاهدت ما حل بي وبصاحبي اصبحت واثقاً بان للصدفة شأنا في التسيير ؛ ولكنه شأن لا يتعدى هذه الكلمة : « لا جبر ولا تفويض » فليس كل ما يعمله الانسان يكون مقدراً بمشيئه الحظ ؛ وليس كلما يقوم به المرء يكون مضمون النجاح وانما للعمل كل الاثر وللبخت كل الأثر ايضاً ؛ والمرء بين هذين يقضي حياته على النسق الذي قضى غيره حياته [لا جبر ولا تفويض]

قال الكهل الصامت ـ وكأن المرشد قد حل عقدة لسانه ـ كنت جالساً في حانوتي قبل اسبوعين حينما تشاجر اثنان من الدلالين في وسط السوق واذا بموجة الضرب تتضخم فتكتسح السوق وتتسع حتى تشمل بعض الباعة فيشتركوا في المعركة بين متفرج ؛ ووسيط صلح ؛ ومنتصر ، ولم احسس الا والموجة تدنو من حانوتي وتضايقني في محلي ويدعوني الوضع للقيام في وجه الجمهور خوفا على بضايعي من ان تهشم وتتحطم وصادف ان كان وراء العمود الخشبي الذي ترتكز عليه

ابواب الدكان حين فتحها واغلاقها ؛ فما ان تحركت من مكاني الا وقد اختلت موازنة العمود فسقط واذا به يهوى على رأس احد التجار الذين دخلوا المعركة الى جانب احد الدلالين فيشج منه رأسه ويسقط وهو بين الحياة والموت ؛

قل لي بربك اي شأن لي بهذا : وما الذي عملته لاستحق عليه السجن والعذاب ؟ وما هو ذنبي في قضية لم اشترك فيها ولم اتدخل في موضوعها ؟ اليس الحظ هو الذي نسج لي كل هذا ليزج بي في السجن ؟؟

هذا مثل من كثير من الامثال التي تدعم رأي الدرويش وتدل على ان ليس كلما يفعل الانسان يراه ؛ وليس كلما لا يرضاه لا يراه ؛

اني اقسم لكم بالذي تعتقدون به اذا كنتم امة تدين بدين من الاديان السماوية : باني لم ازد على الحقيقة التي سردتها لكم حرفا واحداً ولم انقص منها حرفا واحداً ، فلماذا نتجاهل حقيقة الحياة ونزعم ان كل شيء يجيء نتيجة لما يعمل الانسان ويفعل

قال مرشدنا ـ انا معتقد بما قلت ومتأكد من صحة ما رويت ولكنني مع كل ذلك أميل الى ان ادعو الناس الى تجاهل هذه العقيدة والزراية بها لئلا يغالي المغالون فيها ويعطوا الحظ كل الاهمية في تسيير الامور وحينذاك تقعدهم هذه العقيدة عن العمل فينشؤن كسالى عاطلين ضعفاء ؛ ومن ذا تراني - بالرغم من اعترافي بالحقيقة ـ شديد الميل الى غمطها وعدم ذكرها امام الضعفاء ،

لقد تنحنح الكهل الآخر هنا ثم قال :

انا لا اعرف الحظ والبخت وما شابه هذا ... انا اعرف ان الناس كلاب لو فوض امرهم الي لالقمتهم حجراً ففي العام الماضي قد سرقت من جيراننا بعض الحوائج وكنت قد اشتريت قسما من هذا المسروق دون ان اعلم بقضيته فلما وجدوا هذا في بيتي ظنوني انا السارق ، ولو كنت قادراً لاحرقت هؤلاء الظانين لئلا يظنوا بعد هذا باحد سوءاً ، وقبل بضع سنين ؛ كنت واقفاً على دكان بائع المجوهرات اساومه عن خاتم جميل

افلم احسس الا وامرأة تمسكني وتنادي انه خاتمها وعند ما قلت للناس ان الخاتم يخص الجوهري وليس لي به علاقة انكر هذا الجوهري قولي وزعم انني قد جئت بهذا الخاتم لاعرضه عليه لعله يشتريه مني وقد صدق الناس الجوهري وكذبوني ، ولو كان بمقدوري لكنت قتلت الجوهري وقتلت الناس ائلا يكذبوا البعض ويصدقوا البعض ،

فسأله المرشد : وكم كان يبلغ ثمن الخاتم ؟

قال ـ ما يساوي ٣٠٠ تومان

قال ـ وهل كنت تملك هذا المقدار لتساوم الجوهري على بيعه ؟

لقد تعتع وتمتم كمن فوجئ بما لم يكن ينتظر الاعتراض ثم قال : لقد اردت ان اعرف قيمته فقط ولم اكن اقصد شراءه حقيقة !!

١ـ مشيئة الأقدار

٢ـ الذكرى

اقمنا في السجن سبعة شهور ذقنا فيها من مرارة الحياة مالا استطيع ان اصف وقد نفد الصبر مني وضاقت الدنيا في عيني وبقي المرشد وحده يصبر نفسه ويحاول ان يتناسى ما حل به

وفي ذات يوم وانا جالس القرفصاء وواضع رأسي بين ركبتي يمد المرشد يده الى كتفي فيهزني هزاً خفيفاً قائلا : « لك رب فلا تطل تفكيرك » وما كدت ارفع رأسي حتى وقف علينا احد حراس السجن يستدعينا للقيام الى مواجهة آمر السجن.

قال . آمر السجن : « يؤسفني ان اخبركما بان المدة التي قضيتماها في السجن كانت من مشيئات القدر فقط وقد ثبتت الآن برائتكما قبل ان تحالا على القضاء اذ قد وجداهل الحلي حليهم وتمت القضية ..!! »

قال المرشد : حسن جداً ، نحن لا يهمنا شيء من هذا

ولكن لو فرضنا ان كان غيرنا المسجون وكان هذا السجن

مما يؤثر على وضع معيشته كأن تكون عنده عائلة مفتقرة الى

شغله اليومي فماذا كنتم تفعلون مع هذا السجين البريء الذي

قضى سبعة شهور في السجن وترك عائلته تحت رحمة الاقدار ؟

قال آمر السجن : - ماذا ترانا فاعلين غير ابداء الاسف ؟

- وماذا سيعمل بهذا (الأسف) ليت شعري :

قال الآمر - ليعمل اولا يعمل فليس هناك شيء يقدم

للفقير البريء بعد تعطيل عمله غير هذا الاسف الذي قدمته لكما

قال هذا وانحنى على جبين المرشد فطبع عليه قبلتين حارتين

وربت لي على كتفي وقال : اما انت فلا تزال شابا وبوسعك

ان تتناسى هذا في مدة قصيرة جداً ؛

غادرنا السجن مزودين بكلمة [الاسف] ووجهتنا

خراسان ؛ وقد ترك السجن علي آثاراً ظننت انني سأتناساها

- كما قال آمر السجن - اذا لم انسها بالمرة ولكني اخطأت

فاذا نسيت كل شيء فلا انسى مفعول كلمة (الاسف) التي زودنا بها آمر السجن ؛

ترى كيف يتسنى لنا ان نقيم العدل ؟ وان نحفظ حقوق هؤلاء الفقراء الذين تستدعي الاحوال الى ان نعطل اعمالهم وان نؤخرهم عن اداء واجباتهم العائلية بدون تعويض ؟

قلت للمرشد ذلك ولما رأيته ساكتا رحت التمس الجواب على سحنته وفي تقاطيع وجهه حتى اذا مرت برهة التفت الي وقال :—

هذه امور قد اشبعتها قبلك تفكيراً وبحثاً فلم اهتد الى حل مرضي وانا اعتقد ان الغلطة ليست غلطة الانسان وحده وانما غلطة هذه السماء التي يعود معظم هذا النقصان اليها ، واذا كان النظام مفقوداً في قوى الطبيعة العظيمة فبالاحرى ان لا يبين له اثر في حياة هذا الانسان الضعيف ؛

وفي اليوم الذي ظهرت لاعيننا مشاهد خراسان قال الدرويش اننا سندخل مدينة « مشهد » اليوم واذا حظيت

بيغيتي فسنودع خراسان غداً عائدين الى العراق لأني لا احب البقاء في هذه المدينة التي كل ما فيها يذكرني بالعهود الماضية فيقلق راحتي ويغرقني في ذهولي ،

قلت ـ وقد اندهشت ـ ما هي هـذه البغية التي ينتظر سيدي الدرويش تحقيقها ؟

لقد اغرورقت عيناه بالدموع ، واطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال : هي زيارة بيتنا القديم ، البيت الذي ولدت وترعرعت وعشت فيه بين امي وابي وزوجة ابي ، أجـل انها بغية أخشى ان لا تتحقق فلا يسمح لي مالك الدار الجديد بالدخول اليها والولوج الى غرفها ؛

بعد اربع ساعات كنا قد دخلنا مدينة « مشهد » وكنا قد طفنا بضريح الامام علي بن موسى الرضا وخرجنا الى البهو الواقع في الركن الايسر من الحرم حيث تناولنا غداءنا هناك ، ومن ثم قام المرشد يريد بيته القديم ؛ فـكان يدخل شارعا ويخرج من آخر ويسير في ازقة ويخرج من آخرى وانا سائر

خلفه حتى بلغنا حارة واقعة في وسط المدينة ، واذا باطفال هناك يلعبون

وقف المرشد يسرح نظره في الاطفال ويراقب لعبهم كأنه قد اضاع شيئاً هناك ؛ ثم لم يسر بضع خطوات الا ووقف على باب دار وقفة جامدة واذا به لايتحرك واذا بدموعه تسيل كالمطر دون ان يتكلم ويقول شيئاً وبعد نصف ساعة تقريباً مد يده فحرك عضدة الباب وطرقها طرقا خفيفاً فانفتحت الباب وخرج من ورائها فتى في العاشرة او دونها فيسأله المرشد : هل ان ولي الدار حاضر هنا ؟ويجيب الصبي بالنفي ؛ ويطلب منه المرشد ان يدعو له صاحبة البيت ليكلمها بضع كلمات فقط ؛ فينطلق الصبي الى داخل الدار ويدعو امه الينا ويسلم عليها المرشد وفي غاية الانكسار والرقة وبصوت ينم على الذلة والمسكنة يتكلم الدرويش ويخبر المرأة انه فلان وقد كان ذات يوم صاحب هذه الدار وانه يجد الآن في نفسه رغبة ملحة في زيارة بيته القديم وهو يستميح منها الاذن ليمكث في هذه الدار نصف ساعة لا اكثر !!

لقد بدت على المرأة علائم الدهشة فسألت : وماذا ستعمل ان دخلت الدار ؟ قال لاشيء غير ان اجلس على حافة الحوض؛ واذا سمحت لي بالدخول الى غرفها فانني سأبقى شاكراً لك هذا الفضل ما دمت حيا ؛

قالت المرأة ـ إذن فانتظر قليلا ريثما أدعوك ...

ومرت خمس دقائق اعقبها صوت المزلاج فاذا بالباب تنفتح على مصراعيها والصبي واقف يقول : تفضلا ؛

سار المرشد بخطوات متئده وبصمت مشوب بالحزن وإذ بلغ الحوض جلس على حافته وانحنى على الماء كمن يريد ان يتشوف وجهه ، او كمن قد اضاع شيئاً في اعماق الحوض وبعد برهة رفع رأسه الي وبصوت خشن هادئ تمازجه بحة الحزن العميق قال :

ما اكثر ما كشف كربي هذا الحوض فقد كنت الجأ الى هذا المجلس كلما عن لي شيء من الهم ، وكلما ضاق صدري ؛ وهاهي السمكة الحمراء التي ابتاعتها امي فوضعتها في الحوض

لاتزال حية ولاتزال تغدو وتروح ؛ يالله حتى الحيوان احسن من الانسان ،

قال هذا والتفت الى صاحبة البيت يسألها : هل ان هذه السمكة هي عين السمكة التي تركناها هنا ؟ قالت : كلا فقد اختطف سمكتكم القط ثاني يوم انتقالنا الى الدار ؛ ولم يبق لكم في هذه الدار ما يمكن ان يذكركم بالماضي غير نفس البناية والجدران وسائر المرافق التي تراها ،

قال — فهل تأذنين لي بالدخول الى غرف الدار ؟

قالت — ليكن ما تحب فليس هنا اي مانع يحول بين ما تتمنى وترغب ،

والتفت المرشد الحبيب الي وقال :

كان فيما مضى هذا البيت روضة تزهو بام واب وولد وزوجة ابيه ؛ كان كلما في هذه الدار يبعث السعادة والطمأنينة الى قلوب هذه الاسرة وكلما اراه الآن ـ مما يشخص امامي هنا ـ يذكرني بتلك الهناءة واللذائذ الروحية ، فها هنا « واشار

بيده الى الايوان » كانت تجلس امي لتغزل الصوف او لتخيط الثياب ؛ وهنا « وانتقل الى الجهة الثانية » كان يجلس ابي في عصر كل يوم ليشرب الشاي ،

قال هذا وقام الى الغرفة الواقعة الى جنب الايوان ودخلها تواً وهو يقول : هذه هي الغرفة التي خصني بها ابواي وجعلاها مأوى احلامي وصندوق عواطفي وآمالي ؛ هذه هي الغرفة التي لم تغب عني صورتها منذ ان غادرت هذا البيت الى هذا الحين ، تعال هنا لاريك ما كتبته بخطي على هذا الجدار ..

دنوت الى الجدار فاذا بخط جميل واضح كأنه قد كتب اليوم ، واذا بهذه العبارة تتحول من على صفحة الجدار لتثبت على صفحة الذاكره :

« في هذا اليوم تقرأ قصة امسك ؛ وغداً تقرأ قصة يومك هذا »

تأملت كثيراً في هذه الجملة وخصوصاً لما رأيت المرشد يقف جامدا كالصنم امام هذه العبارة ، وبعد صمت طويل قال

لي : هنا كنت ارقد مرتفقاً على ذراعي والى جنبي السراج وامامي الكتاب ، وكثيراً ما كنت اسمع صوت امي الحنون يقطع علي مطالعتي مناديا : « أن قم الى العشاء فقد حضر ابوك » فاطبق الكتاب حينذاك واقوم الى العشاء واقضي الى جانب امي وابي وقتاً جميلا تتخلله احاديث شتى ،

وهنا جاءت صاحبة البيت تستدعينا الى تناول الشاي فخرجنا الى الايوان ؛ حيث وضع امام كل واحد منا (كوب) من الشاي فشرب انا (كوبي) ويبقى كوب المرشد على حاله مدة اضطرتنا الى لفت نظره وتنبيهه الى ذلك

قالت صاحبة البيت : الا تتفضل فتحسبني امك لكي تخفف شيئاً من جزعك وتنسى آلامك ؟

قال — ليتني استطيع ذلك ، فانني قد اقدر على ان اجعل من الوهم كل شيء الا هذا ، وانني عندما اذكر امي وابي لا اذكر منهما صورتيهما فحسب وانما اذكر آلامهما ، احزانهما فرحهما ، وابتهاجهما ، عواطفهما ؛ حتى الدقائق الجزئية من

اعمالها ؛ فاسمع امي تناديني وابي يحدثني ؛ وزوج ابي تعتذر الي بعد اعترافها ؛ فتهيج عواطفي ، ويرق قلبي ، وتفيض عيناي بالدموع فلا املك قيادي ولا اتمالك نفسي ،

فلم تسمع المرأة ذلك الا واختنقت بعبرتها ثم اجهشت بالبكاء ؛ الا ما ارق قلب المرأة وما اكثر حنوها ، ما افهمها للغة العواطف وما اشد احساسها !! انها قد ادركت آلام هذا هذا الرجل ، وعرفت ما يحيط بقلبه ، وما يكتنف فؤاده فلم تمالك نفسها صبراً ، ولقد حرك هذا الحنو درويشنا فاذا به ينتحب كالثكلى هي تبكي شفقة عليه وهو يبكي حزناً على ماضيه ؛

لم يكن قلبي مقدوداً من الصخر لارى كل هذا واسكت وعبثاً حاولت التمسك بالصبر والجلد فلم التفت الا وعيناي تفيضان بالدموع ؛

مسح الدرويش دموعه بمنديله واخفى معالم حزنه بابتسامة رقيقة وجهها الي وقال : لاتبك ياولدي فلك علي عهد الله بانني ساوصلك الى امك وابيك قريباً لئلا يفوت الاوان

وتصبح مثلي شقياً فانت لا تعرف أثر هذه الذكريات الا بعد فوات الفرصة ؛ ولا تقدر سعادتك تحت ظلال ابويك الا بعد فراقك لهما ؛ فكم بلغت مدة غيابك عن اهلك ؟

قلت — سبع عشرة سنة ؛

قال — ارجو ان يكون اهلك الآن في صحة وعافية ؛ وارجو ان لا تكون الفرصة قد ذهبت اذ لا يزال هناك متسع لرؤية امك وابيك ،

الحق اني لم افكر في اهلي حينما بكيت ولكن هذه الالتفاته من الدرويش قد غيرت مجرى تفكيري مرة واحدة ومثلت لي حياة اهلي امام عيني فاذا بي احن حنين الواله المشوق وانسى كلما حل بي فلا اريد الا ان ارى امي ؛ امي الحنون التي كانت تفاديني بنفسها

خرجنا من البيت ونحن نمسح آخر قطرة من دموعنا وقد ازمعنا النية على العودة الى العراق غداً ،

بعد الموت

قبل ان نغادر خراسان قال المرشد : لي صديق يشتغل عطاراً فليس من المروءة ان نبرح هذه الارض دون ان نعرج عليه ونسأل عن احواله ؟ قلت ليكن ما تريد وتوجهنا الى سوق صغير دلفنا اليه من باب الصحن فبلغنا الدكان ؛ ووقف المرشد يدير عينيه باحثاً عن صديقه حتى كل من التحديق في وجوه العطارين ولم ير بداً من ان يسأل هـذا الشاب الذي يشغل هذا الدكان في محل الصديق المبحوث عنه :

— اين هو السيد محسن وهل هذا هو حانوته ؟

فالتفت الشاب بخفة الى الدرويش وقال ـ لعلك تسأل عن السيد محسن الحائري ؟ قال : اجل فاياه اعني ....

قال — وما الذي تبتغيه منه ؟

قال — لاشيء غير زيارته ...

قال — لقد توفاه الله منذ ست سنوات ؛

وجم المرشد بغتة وتمتم بعد ذلك بكلمات لم افهم منها غير طلب الرحمة وسأل :

— وأنت ؟

قال — انا ؟ انا كنت مستخدماً عنده فلما مات اشتريت هذا الحانوت بما فيه من زوجته . والذي استطعت ان اقوم به لعائلة المرحوم من الخدمة هو اني استخدمت ابنه في الدكان وقد بعثت به الآن في شغل لي واذا احببت ان تراه فانتظر قليلا ريثما يعود ؛

جلس المرشد على كرسي صغير الى جوار العطار وجلست انا الآخر قباله على كيس البضائع وبعد بضع دقائق عاد الصبي يحمل صندوقا خشبياً ينوء تحت ثقله ؛ فلتفت العطار الى الدرويش وقال : هذا ابنه ؛

انحنى المرشد على الصبي وقبله وبال خديه بدموعه ثم طلب من العطار ان يأذن للصبي بمرافقته الى بيته ليزور امه ، واذ وصلنا البيت دخل الصبي الى امه وعلى مسمع منا ناداها :

إن هنا درويشين يريدان أن يرياك ، فصاحت الام على الاثر : هذا هو الشيخ حبيب وخرجت الينا ملهوفة تتقد شعوراً وعاطفة ،

بعد ساعة كان قد انتهى فيها بث شكاوي الزمان وصروف الدهر ؛ ومرارة الايام ، قال لها المرشد ان لي وصية كتبتها ذات يوم وجعلتها أمانة عندكم فهل هي لاتزال عندك ؟ واذا كانت فأرجو ان تتلطفي بها علي ؛

قالت — اني لا اذكرها ولكن عندي صندوقا صغيرا أقد اودعت فيه ما كان لدينا من اوراق وسجلات وها انا ذي آتية بالصندوق لعلك تجد فيه مطلوبك ،

ولم يلاق كثير عناء في البحث اذ وجد وصيته حالما قلب الاوراق فوضعها في جيبه ثم ودعنا المرأة وقمنا نهم بالانصراف ؛

قالت المرأة :

ـ الى اين ياشيخ حبيب ؟

قال - الى الفناء

قالت ـ حفظك الله لماذا كل هذا التشاؤم ؟

قال — ليس هناك تشاؤم ؛ ألسنا في النهاية الى الفناء ، اين ذهب زوجك ؟ بل اين ذهب ابواي ؟

وخرجنا في هذا اليوم نطلب الرجوع الى العراق من طريق البصرة وبقيت الرغبة في الاطلاع على الوصية تحز نفسي حزاً ؛

قلت الدرويش — ما هذه الوصية التي اثارت في نفسك كل هذا الاهتمام ؟

قال — هي وصية صغيرة كنت قد اوصيت بها صديقي العطاربان ينفذها بعد مماتي ويكتب مضمونها على قبري فيما اذا وجدلي قبراً معيناً ، وفيما اذا سمحت لي الارض بان تواري جثتي فيها بين طبقاتها ولم يلفني البحر او يفترسني الوحش ؛ واذا كانت غريزة حب الاطلاع لم تدعك ساكنا فهاهي الوصية فقرأها ونفذها انت بعدي اذا وجدتني ميتاً ؛ واكتبها على قبري اذا وجدت سبيلا الى ذلك ؛

اخذت الوصية وقرأت :

« انا اعلم ان لا اثر لاي عمل بعد وفاة الشخص ؛ وكل وصية لا تعود على صاحبها بالنفع اذا ما عض لسانه وانطوى في اكفانه ؛ فالشخص مسئول عن عمله مازال في قيد الحياة . وجميع الشرايع تحتم عليه العمل وهو حي ، ولا تطلب منه شيئاً وهو ميت ؛ ومع كل ذلك فانا ارغب ان تكتب على قبري الكلمة الآتية :

احب من المبادئ معرفة الله عز وجل؛ ومن الامم البشرية امة العرب ؛ ومن الشرايع العدل والانصاف ، وعلى الواقف على قبري ان يستنتج العظة والعبرة مما احببت فلكل حب سبب يعود الى تجاريب سنين عدة »

رفعت رأسي ناظراً اليه وقلت :

ـ أصحيح انك لا تؤمن بما بعد الموت !

قال — لقد سئت فهمي فانا لم اقل أني غير مؤمن بذلك وانما اردت أن اقول لك ان كل عمل لا يعمله الانسان في حياته لا ينفعه ان عمل باسمه بعد مماته ؛ ولعله لا يغيب عن ذهنك

ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله من انه انفق لرجل مقادير
كثيرة من التمر الذي خلفه بعد مماته حتى اذا رأى حشفة يابسة
بين التمر تناولها النبي بيده وقال :

والله لو انه انفق هذه الحشفة بنفسه لكانت اجدى
عليه مما انفقته اناله من بعده ؛

بعد مرور زمن طويل قضيناه بين القرى والمدن وصلنا
مدينة [اصفهان] وفي محلة من محلاتها المعروفة [ببيد آباد]
حططنا رحالنا لنقضي بضعة ايام هنا ثم نواصل السفر الى شيراز
ومنها الى البصرة ، وفي اول يوم وصولنا التفت حولنا جماعة
من معارف المرشد حبيب واصدقائه ؛ بينهم كثير من طلاب
العلوم الدينيه الذين سبق لهم ان عرفوه في النجف وفي خراسان

وقد لاقينا حفاوة عظيمة وعرض علينا جمع منهم مساعدتهم فابى الدرويش ان يأخذ شيئاً ؛

وفي ثاني يوم وصولنا دعانا احد رفاق المرشد الى تناول طعام الغداء في مكان قريب من « المنارة المتحركة » وقد سار معنا جمع من اصدقاء المرشد ومعارفه ؛ وهناك بسط الخوان فتناولنا الغداء بنهم ولذة ، وتركنا الاخرين يهيئون الشاي وقمنا نحن الى « المنارة المتحركة » وهما منارتان تبعد احداهما عن الآخرى قليلا وبخفة وسرعة صعد اثنان منا كل واحد الى منارة وبدأ احدهما يهز المنارة فاذا بالثانية تهتز من نفسها !!

والمنارتان مبنيتان من الصخر الصلد والاجر وليس لهما ببعضهما اية علاقة مباشرة غير الارض ؛

وسألت انا احد الرفاق عن السر فقال ان بين هاتين المنارتين قبراً لولي من اولياء الله والسر في حركة المنارة واهتزازها يعود الى هذه التربة التي قدسها الله بضم رفات هذا الولي العظيم

بدالي أن الامر لايخلو من عجب وغرابة ، وان في القضية سراً غير الذي ذكره لي هذا الرجل فلم اجد بداً من عرض شكوكي على المرشد ورفاقه الذين كانوا قد وقفوا يتحدثون بهذا الحديث نفسه الى جانب آخر من المنارتين ؛ فالتفت الى الجمع سائلا :

ـ وانتم ماذا تقولون ؟

قال احدهم — وماذا نقول غير ما نراه وجدانياً ؟ هاتان منارتان اذا اهتزت احداهما اهتزت الثانية فهل بالامكان تكذيب ما نراه عيانا ؟

قلت — لست في صدد التكذيب والتصديق ولكني ابحث عن السبب لأني لا أستطيع ان ايد شكوكي بمجرد القول ان السر المبحوث عنه انما هو كامن في نفس هذا التراب الذي يضم رفات قديس من القديسين ،

وبعينين مزورتين وجبهة مقطبة كثيرة التعقيد التفت لي احد الحاضرين وقال :

- منذ كم وانت لاتثق بالمعجزات ولا تعترف بالقوة الآلهية الخفية ؟

هنا تدخل المرشد ضاحكا واستوقف هذا المهاجم قائلا :
متى كان لهذا السؤال والجواب علاقة بالقوة الآلهية والمعجزات الربانية « قال ذلك وهو يضحك محاولا ان يخلط الجد بالهزل »
ثم اردف: انا رجل ظن بي ما شئت ان تظن وتعال اجبني عن سؤال صاحبي هذا وخبرني ما هو سر هذه الحركة والاهتزاز اذا لم أشأ ان أومن بقبر هذا الولي القديس ؟

قال - اذا لم تؤمن فليس لدي جواب لسؤالك ؟

قال - اذن فما هذا الازورار وهذا القطوب ؟ اما انا فمعتقد ان السر في حركة المنارتين يجب ان يكون ماديا بحتاً وبرهاني على ذلك هو ان القانون الذي استخلصناه من الحياه بجميع صورها واحوالها كان قانوناً طبيعياً لايقبل الشك والارتياب ؛ فانت اذا لم تزرع لم تحصد ؛ وذا لم تبن لم تعمر ، واذا لم تهدم لم تغير ؛ وانت لاتعمل كل هذا الا بالقوة

المادية الملموسة المحسوسة التي اودعها الله فيك ؛ مالي وللقبر الذي تشير اليه هنا ؟ فاني زاعم بانه لو تسنى لي البحث في اسس المنارتين لعثرت على السبب بدون اقل عناء وتعب ،

نعم انني اشعر بحركة المنارتين ساعة يهز الشخص احديهما ولكن مثل هذا لا اعده خرماً للقاعدة الطبيعية قبل ان افرغ من البحث في اسس هذه البناية وحولها ؛ ولك مني عهد اذا أبت من بحثي العلمي بالخسران أن أضع يدي بيدك واقول لك آمنت بان هناك شيئاً آخر وراء الطبيعة خفياً غير الله عز وجل ؛

ولكن من يتركني لاهدم هاتين المنارتين وابحث في انقاضها ؟ من يدعني أومن ايماناً صحيحاً يقارب ايمانك بهذه الاسرار ؟

والذي ارجوه ياصديقي الحبيب هو ان تبتعد البعد كله عن خلط المسائل الاجتماعية بالدين لان ذلك ضعف وهرب يعرفه كل من وهبه الله ذرة من التأمل ، فليس الدين اي

شأن في مثل هذه الابحاث فلا تضيع كرامة الدين بضعفك بل
اجعل الدين ضمن سياج من التقديس والتبجيل ، ولا تذكر
اسمه الا حينما يجيء ذكر القوانين الانسانية والشرايع البشرية
اما اذا اردت ان تتخذ من الدين وسيلة لدفع مناظريك
وصد مناقشيك فقد اسأت الى الدين كما اسأت الى آداب
المناظرة لأن الدين اكبر واعظم واسمى من ان تضعه موضع
الحجر الذي ترمي به ? والسهم الذي تصوبه الا الخصماء ،

١ ـ الايمان

٢ ـ الزواج

في اليوم الرابع او الخامس من وصولنا لمدينة اصفهان
عاود الدرويش مرضه القديم فاذا بالحمى تشتد وتشتد حتى تبلغ
منتهاها واقضي ليلة نابغية كنت احسب ان يختمها الفجر
بالفرج فاذا بالفرج مقتصر عليه وحده واذا به يلفظ انفاسه

الاخيرة ويودع الدنيا بعينين مليئتين بالجذل وقلب مفعم بالايمان

اشهد انه لم يئن ولم يتوجع ؛ ولم يتململ ولم يتضجر ولم يكن شيء يخرجه عن المألوف غير طلبه الماء بكثرة في تلك الليلة وغير ترديده هذه العبارة بين كل فينة وأخرى :

« اشهد ان لا اله الا الله العادل الرحيم »

وكنت كلما سألته عن شيء اجابني « لا ارجو الا رحمة ربي »

مات المرشد حبيب وتركني وحدي ولقد بكيت حتى جفت مآقي ، وندبته حتى بح صوتي ولم اعد استطيع ان أملك نفسي ، لقد علمني المرشد كيف يجب ان يصبر المرء وكيف يجب ان يتناسى الالم ، وكنت قانعاً بأني قد حفظت هذا الدرس منه حفظاً جيداً ؛ وتعلمت منه الصبر قويا فاذا بكل هذا لا قيمة له ولا اثر منه ، ساعة ارى هذه الشمعة تتضاءل رويداً رويداً حتى تنطفىء ؛

ما كنت رأيت ميتاً قبل هذا يموت على هذا النحو الذي مات فيه المرشد حبيب وما كنت اصدق أني قادر على ان

اري ميتاً في آخر ساعة من حياته دون ان تملكني خشية الموت وروعته الا هنا حيث لم يجل في خاطري شيء غير اني فقدت شخصاً لاقدرة لي على رؤيته بعد؛ وهنا عرفت جيداً قيمة تلك الذكريات التي جعلت المرشد حبيباً يقطع تلك المسافات الشاسعة ليصل الى بيته فيرى محل امه وابيه ، وحتي ليرى السمكة التي كانت في حوض الدار ، ويتفقد البيت كمن قد اضاع قلبه ونفسه بعينين شاردتين وقلب طائر ، وبصيرة ضالة ،

اجل لقد عرفت هنا مفعول الذكريات اكثر مما عرفتها وانا واقف الى جنب المرشد حين وقوفه في بهو داره القديمة فتذكرت كل شاردة من الامور التي مرت علي قبل سنوات بعيدة وقبل ايام قليلة ؛ وبكيت بدون اختيار ؛ ونحت عليه بل والقيت بنفسي على جسده البارد مختنقاً بعبراتي ثم جمدت كأنني ميت ويا ليتني قدمت ،

لقد مات المرشد حبيب اما الذكريات فلم تمت ؛ ولقد اندمج في الوجود المجهول ؛ اما الذكريات فلا تزال تكون

لنفسها سفراً مستقلا لا تستطيع ان تعبث بة حوادث الايام ؛

ولقد نفذت وصيته وكتبت على قبره زيادة على ما اوصاني بضع كلمات اخرى ، والذي يمر اليوم على مقبرة اصفهان الكبرى يرى قبراً بين القبور في الجهة الشمالية من المقبرة عليه العبارة التالية:

« هنا يرقد انسان يكفيه انه عاش طويلا ولم يسيء الى احد »

« وقد اوصى ان تكتب على قبره الجملة الآتية »

« احب من المبادئ معرفة الله ، ومن الامم البشرية امة العرب ؛ ومن الشرايع العدل والانصاف ؛ وعلى الواقف على قبري ان يستنتج العظة والعبرة مما احببت ؛ فلكل حب سبب يعود الى تجاريب سنين عدة »

وعدت انا وبعض رفاق المرشد من المقبرة وقد ذرفنا آخر قطرة من الدموع الحارة على قبره ،

كان بين معارف المرشد رجل يعرف بالشيخ حسن وجدت منه عطفاً ولطفاً وعناية كان لها بعض التأثير على تسكين

لوعتي ، وتجفيف جزعي وقد نقلني في ذلك اليوم الى غرفته الخاصة في المدرسة الدينية التي كانت تضيق ذلك الحين بكثرة طلابها ؛ ولم يمر علي شهر في هذه المدرسة الا ووجدتني انحرف عما اختططته لنفسي من قبل فاميل الى الحياة الاجتماعية بفضل هذا الصديق الوفي الكريم اذ سرعان ما اقنعني بنبذ هذه القلنسوة والطبر والطيلسان والكشكول وعوضني عنها بعمامة بيضاء وقباء طويل وعباءة صفراء ووضع بين يدي كتابي « اللمعة والمعالم » في الفقه والاصول وطلب الي ان ازل الى ميدان الدراسة بقدم ثابتة والقي على الماضي ستاراً كثيفاً يحجب عني كل شيء الا ذكريات المرشد حبيب ؛

وفي السنة الاولى كنت اشغل في هذه المدرسة مقاماً جليلا لدى الطلاب فقد كنت احسنهم في فهم الادب العربي وفهم المطلوب من التعاريف العلمية ؛ لا بل ان كثيراً من الاساتذة كانوا يرجعون الي في فهم المشاكل البيانية التي تعترض سبيلهم في الفقه والاصول والكلام ؛

كنت اتقاضى راتباً شهريا في المدرسة يكاد لايفي بسد حاجاتي لولا ما كان يغدقه علي بعض العلماء في بعض المناسبات ،

وهنا جاء بحث الزواج ، وقد ناقشني كثير من الاصدقاء في قضية الزواج واقترح علي بان اودع عزوبتي واخرج من عزلتي خروجا تاماً باقدامي على الزواج فتضاربت الاراء ؛ تضاربت لأني لم استطع ان اقنع نفسي بصحة هذا العمل وكنت اعتقد انني إن استسلمت الى رأي هؤلاء الرفق وقبلت بالزواج فسألقي بنفسي في مأزق ليس فيه منفذ للخلاص ؛ ولقد ذكرت لهم كل العقبات التي احتملت ان تقف سداً بيني وبين الزواج ولكنهم تعهدوا بان يأخذوا على طاقتهم تذليل هذه الصعوبات حتى يهيئوا الي كل شيء بدون ارهاق وبدون عناء ،

ألا ما أسهل الزواج عند هؤلاء وما اسهل عليهم اطلاق كلمة « زوجتك » عند اجراء العقد ؛ وليكن بعد ذلك ما يكون هل هذه الزوجة صالحة لهذا الزوج وهل هذا الزوج كفو لهذه الزوجة وهل هناك من تلاؤم في الطبع والخلق بين هذا وهذه ؟

كل هذا قد لا يمر على بال واحد من هؤلاء الذين اجتمعوا حولك ليحملوك على الزواج ؛ وكما يتذكرون ويعنون به هو هذه النفقة الحاضرة التي يلزمونك بان تهيئها ولو من طريق الدين ولا تسأل بعد ذلك عن شيء فالله هو الرزاق والله هو الذي يؤلف بين القلوب ، والله هو الذي يتكفل بتدبير شؤن المستقبل ولو تأملوا قليلا فيما اراد الله ويريد لعرفوا حكمته ورضخوا لسنته ولمشوا في دنياهم مشية متزنة مستقيمة بعيدة عن الاتكال ، قائمة على سنة الله العامة ؛

هل الاله هو الذي يقول لي ان اتزوج قبل ان اتدبر امر نفسي وقبل ان اعرف من التي سأتزوج ؟ هل ان الله هو الذي يقول هذا ؟ اشهد انهم لم يعرفوا الله ولن يريدوا أن يعرفوه ؛

قال لي اصحابي ؛ لا يهمك شيء من هذا الزواج فننا سنهيء لك المهر ونخطب لك الفتاة الصالحة ؛ وليس عليك الا أن تهنأ وتعيش سعيداً ؛

قلت كل هذا حسن ؛ ولكن من يكفل لي ان يكون هذا الزواج سعيداً ؟ ثم انكم ترون اني لا اكاد أحصل على قوتي الا بمشقة كبرى فاين ذاك المورد الذي استطيع ان انفق منه على زوجتي واولادي غداً ؛

قالوا لا تفكر بكل هذا فلك الله الذي هو للجميع ...

لم اقتنع بما قيل ولم ييئسوا مني وراحوا - كلما وجدوا فرصة - يلحون علي ويشددون الالحاح بل راحوا يستخدمون نفوذ العالم الكبير والاستاذ العظيم [اقا نجفي] لترضيتي ؛ ومعنى هذا ان موافقتي على الزواج ستكون من قبيل الاطاعة اما الحقيقة فهي اني حين اجبت طلب الشيخ لم اكن راضياً مقتنعاً ؛

تم كل شيء كما قيل ، وخطبوا لي الفتاة التي اختارها الاصدقاء لا انا ؛ بقي لي امل واحد في الصدفة والحظ ولم اكن لاعلق على الصدفة أملا ولكني هنا كنت كغيري مضطراً الى هذا ؛

يارب اي قرين سألقى ؟ هل افهمه هل يفهمني ؟ هل يصبر مثلي على الجوع وعلى البلاء ؟ هل يرى كل ما في الدنيا عرضاً زائلا كما ارى انا ؟

كل هذا قد جال في خاطري واستفهمت به من نفسي ليلة تم العقد ، وقرأ آية الله (النجفي) صيغة الزواج فكانت نفسي تجيبني بكلمات مبهمات لم افهم منها شيئاً غير اني مقبل على حياة قائمة تفتقر الى عناية ربانية خاصة .

كنت قد اخذت الاهبة من قبل لما يكتنف الحياة الزوجية من متاعب وكنت قد تصورت الطفل الباكي ، والزوجة الشاكية ، وما شاكل هذا قبل ان اتصور ابتسامة الطفل وطلاقة وجه الزوجة وما يحوط البيت من سعادة ، لذلك لم اجد في كل ما رأيت شيئاً غريباً ولم اكن برماً ولا ضجراً مما قد رأيت بل اعطيت كل ناحية من النواحي حقها من التفكير قبل مجابهتي اياها ؛

وكان من لطف الله بي ان بسم لي الحظ فوجدت

الزوجة التي ابتغيها ووجدت هي الزوج الذي تبتغيه ؛ ولعل هناك من يتخذ مثل هذا درساً فيقدم على الزواج قبل ان يمحص الحقيقة وقبل ان يفكر في امره فلمثل هؤلاء اقول : « ما كل مرة تسلم الجرة » وما في كل وقت تتأتى الصدفة الحسنة ، وحادثتي هذه لا تصلح ابداً لتكون مثلا لغير الصدفة غير المنتظرة ،

القطيعة

انا الآن رب زوجة واطفال وقد اسميت ابني البكر (حبيباً) احياء لذكرى ذلك الرجل الطيب وتيمنا باسمة المندس وقد علمت زوجتي مني قصتي ولامتني على عدم كتابتي لاهلي الذي لم يكن له سبب غير النسيان فكما ان كثرة مرور الشيء على ذهن الانسان يجعله راسخاً ثابتاً في الذهن فان القطيعة اذا ما دامت لم يبق لصاحبها حتى ولا ذكر في المخيلة وما تقوله عن الاصدقاء تقوله عن الاهل بدون اي فرق هناك

وها انا اذا تمضي علي حقبة من الزمان دون أن يصلني من اهلي شيء ودون ان ارسل لاهلي شيئاً فلابد وان يكون شأن اهلي في ذاكرتي - وان كان عظيما - قد قل تدريجاً وغشيته سحابة النسيان فاذا به بائد لا اثر له ولا رسم ، لا صورة ولا خيال ،

كتبت الى اهلي كتابا وكأن هذه المحاولة وحدها كانت كالمفتاح الذي تديره في الباب ؛ اذ لم يمر علي شهر واحد الا وانا امسك القلم لاكتب لهم كتابا ثانياً ولو لم يجئني منهم الجواب

وبعد اربعة اشهر اذا بالجواب يصلني من والدي!! واني لآسف جداً على ضياعه مني والا لكنت قد درجته هنا بنصه لما فيه من تأييد وبرهان لما ذهبت اليه بشأن القطيعة ومع كل ذلك فانا قادر على ان اذكر مضمون كتابه ،

كان يقول لي والدي انه حزن كثيراً اذ عرفني حياً لانه كان هو وامي قد حسباني ميتاً منذ زمن بعيد ويئسا مني بل ونسياني اما الكتاب الذي وصلهما مني فقد احزنهما كثيراً

بدل ان يفرحهما لانه اعاد الى ذاكرتيهما شيئاً منسياً كان الافضل ان يبقى منسياً حتى النهاية ، فهذه الام لا يقر لها قرار منذ ان قرأ عليها الكتاب حتى الآن ؛ وهي الآن لا تستطيع ان تتصبر على فراقي ؛ والاب ؟ لقد ذكر الاب الماضي الذي مر عليه بجميع مشاهده ومواقفه واشتاق الي ؛

وفي الاخير كان يطلب هذا الاب ويلحف في الطلب علي بمجيئ زائراً ان لم اجئهم مواطناً .

اللقاء

بعد بضعة شهور وبينما كنت اقوم بتدريس حلقة من الطلاب في المدينة اذا بجار يدخل علي ويخبرني بأن ابي وامي قد وصلا وانهما الآن في داري ينتظران قدومي ،

ارتبكت ولم اعرف سر هذا الارتباك واعترتني قشعريرة وانتفاضة غريبة ألانني لا اريد ان ارى ابوي ؟ الأنه كان يحلو لي ان تبقى القطيعة الى الابد كما كانت ؟ كلا فليس من

هذا شيء في نفسي ، ولكنها انتفاضة نشعر بها النفس ولا تستطيع ان تعرف مأتاها ؛ انتفاضة خاصة لا اظن ان احداً يسلم منها في هذه المواقف ،

لقد عجزت عن وصف مقابلة امي لي وحسب القارئ ان يتصور أما تجد ولدها بعد ان اضاعته ويئست منه ؛ كيف ستتلقاه ؟ وكيف تبكي ؟ وكيف تعمل ؟

واول ما عملت هي ان اسرعت الى ذراعي فكشفت عنه ثوبي لترى الخال الذي ارتسم عليها كعلامة فارقة ثم بكت بكاء تفطر له قلبي ؛ اما ابي فقد اكتفى بان عانقني طويلا وقبلني كثيراً وجلس يقاطع امي عتابها ليرقق من صيغة العتاب وليسوق اللوم الي عذبا حلواً ،

اقام ابواي عندي شهرين سافرا بعدهما الى [مشهد] الرضا ، وعادا الي ليقيما اياما ثم يعودا الى النجف ؛ ولما كان الشتاء قد فاجأهما فقد خشيت عليهما في الطريق من البرد خصوصاً وان السفر سيستغرق سبعين يوما اذا لم يكن اكثر

بسبب بطئ القوافل ونزول الثلوج لذلك اقترحت عليهما ان يقضيا الشتاء عندنا ثم يسافران ، وبين القبول وعدم القبول اجابا اقتراحي وبقيا ،

الخلاف العائلي

بعد ايام قليلة احسست بشيء من الفتور يدب بين زوجتي وامي ؛ وادركت بانهذه الام جد سائمة وجد نادمة على البقاء ولم يكن ليخفي علي السبب فهذه احوال طالما مرت نظائرها بين المرأة وكنتها ؛ احوال اذا لم تعالج في وقتها ادت الى نتائج جد متعبة وآيلة الى الفت في عضد الاسرة ؛ واني لمعتقد ان الرجل وحده يستطيع ان يقضي على كل هذه الاحوال بحركة واحدة ؛ وهو وحده يستطيع ان يضع حداً نهائيا لمثل هذه الاختلافات التي تحدث بين الزوجة وام الزوج وذلك بان يعطي امه كل نفسه ، ويهبها كل قلبه ويتظاهر امامها بانه سيكون لها الى الابد ويفهم زوجته بان الواجب عليها يقضي

بان تعامل امه كما يعاملها هو ؛ لان هذه الام لاتطلب شيئاً
غير ان تستبقي ولدها لها ؛ هي لاتتطلب غير ان تبقى محترمة
لدى ابنها وهو مطلوب سهل جداً ليس اسهل شيئاً منه
على الرجل ؛

وباسرع ما يمكن استطعت ان افهم زوجي بحقيقة الام
وباسرع ما يمكن قدرت ان ادفع زوجي الى ترضية امي
بشتى الوسائل ، فاذا بالسعادة تسود البيت فلم يبق مجال للقال
والقيل والاخذ والرد ؛

ها انا ذا اعود الى البيت فاضع في يد امي مبلغاً من الدراهم
وارجو منها ان تشتري لنفسها ثوبا ولزوجي ثوبا فاراها
تقتطع من سهمها لتضيفه الى سهم الزوجة !!

واراه تفضل ان تبتاع لنفسها الصنف الرديء من القماش
لتخص زوجي بالصنف الجيد ؛ واذ ترى زوجي تفتقد امي
لها وعنايتها بها تنقلب فاذا بها تكاد تذوب اخلاصاً ورقة
امام هذه العجوز التي تكتفي من الحياة بهذا وحسب ،

القلوب كالاشجار

انقضى الشتاء وحان وقت رجوع والدي الى العراق وبدأت ابتاع لهما بعض الهدايا والامتعة وبدأت زوجتي تعدلهما ما تتمكن منه واذا بي اتمثل سفرهما فلا اطيق صبراً عليه وانت ترى اني بعد ذلك النسيان الطويل وتلك الرعشة والهزة التي اعترتني ساعة بلغت بخبر وصولهما قد استحال كل هذا الى شيء آخر جعلني ولعاً بابوي شديد الولع ؛ محتفظاً بهما كل الاحتفاظ اخشى ان يطيرا فيطير قلبي؛ وان يرحلا فيرحل هنائي ، ويبعدا فتبعد سلوتي ... !!

ودعتهما والعبرات تجري مني ومنهما ومن زوجتي ؛ وقد بتنا نخال البيت مظلما لا نور ولا شعاع !! آه ما اشد ما تفعل الذاكرة بالانسان ! وما اعظم فعلها بالقلب !

ولقد خفت ان يواجهني الزمان بما واجه به المرشد حبيباً ويقفني من ابوي حيث وقف الدرويش من ذكراه ، الا ليتني

لم اكتب لها - كما قال ابي - ولم يكتب لي إذن لكنت الآن سعيداً لانني كنت بلاقلب يذكرني بابي وامي؛ ان القلوب كالاشجار اذا ما تعهدها الفلاح نمت واثمرت وان اهملت جفت ويبست

بعد سنتين او اكثر تبودلت بيني وبينهما الرسائل هاجت ذكرياتي فاقضت مضجعي ودعتني لا افكر بغير اهلي ورؤية اهلي ولقد اقترحت علي زوجتي ان نتوجه الى النجف عسى ان يهدأ هذا القلب ويستقر فنقضي هنالك اياماً لعلنا نلمس فيها السعادة التي ننشدها في جوار ذلك الاب الكريم والام الحنون ؛

اعددت كل شيء للسفر وفي نفسي من الشوق مالا استطيع وصفه فقد كنت احلم بلقاء زملائي الاطفال الذين رافقوني في الصغر ومن بينهم « جواد » الذي كنت اوثره على كثير من الاطفال ؛ وابناء عمي واصدقائي الذين اعادت علي الذاكرة اسماءهم ، ثم منبتي الاول ، والتربة التي احببتها اعني بها العراق كل هذا قد تملكني وجعلني شعلة ملتهبة من الشوق والحنين الى السفر ؛ فسافرت ؛

بين القديم والجديد

ها اناذا اعود الى النجف بعد ثلاثين سنة من مغادرتي لهذه المدينة ؛ والله وحده العالم كم الف من المواليد قد دخل دنيا النجف في هذه الفترة التي غبت فيها ، وكم الف قد ودع هذه الدنيا غير المأسوف عليها من قبل البعض والمأسوف عليها من الجميع ؛

هنا انا اخرج صغيراً منفرداً من النجف واعود اليها كبيراً والى جانبي امرأة نكون انا واياها اسرة جديدة لا ندري ماذا سيكون شأنها في الآتي القريب والبعيد ؟ ....

لقد وجدت كل شيء قد تغير هنا ؛ وكل شيء قد تطور واكتسب شكلا جديداً وطوراً يختلف عن الاطوار السابقة اما الشيء الذي رأيته كما هو لم يتغير ولم يتبدل فهو وقوف السقائين في الصحن الشريف وفي نفس المحل الذي تركتهم فيه واقفين من قبل ثلاثين سنة ، واصوات الباعة الداوية في

ارجاء السوق لم تزل تدوي بتلك النغمة وبذلك الهرج الذي لم يصل الى اذني الا وذكرني بالعهد الماضي القديم ؛

لقد تغير كل شيء حتى هذه المواكب التي رأيتها من قبل والتي كانت تبدو في غاية البساطة في محرم فكانت تذكرني بمقتل امام الاباة وتمثل لي فظايع التاريخ فاغدو مخضل العينين بالدموع – على صغر سني – اقول ان هذه المواكب التي كانت تمثل فيها فجيعة كربلا لم اجدها الآن كما تركتها فقد ادخلت عليها من المراسيم ما غير وضعها ؛ وذهب بقيمتها وصيرها شيئاً اشبه باللعب منه بالعزاء ؛

تركت النجف ، وهي على كثرة علمائها ورجالها الاعاظم خاضعة لناموس ديني خلقي متين لا يعرف غير الوحدة الاسلامية مبدءاً بين مختلف طوائفه ومذاهبه ، تحت راية ابرز العلماء واشهرهم ؛ وعدت الى النجف واذا بالملاحين اكثر من ركاب السفينة واذا بكل واحد من هؤلاء الذين لم ارهم قبلا والذين رأيتهم فيما بعد لا يخضع لما كان يخضع اليه سلفه الصالح

ولا يدعو الا الى نفسه؛ اختلف المشايعون من جراء ذلك. وتشتت الكلمة الموحدة وتجزأ كيان الوحدة التي دعى اليها السلف الماضي وناضل دونها؛ تلك الوحدة الاسلامية التي عاش لها الماضون ،

الا كم نحن مفتقرون الى تلك المبادئ السامية في مثل هذا الوقت الذي نرجو فيه ان ينضم العرب بعضهم الى بعض ليعيدوا المجد القديم والتأريخ الزاهر ؛ وكم كنا نستطيع ان نستفيد من جمع كلمة المسلمين في جمع كلمة العرب لو كان رجال الدين في جميع الاقطار يسيرون اليوم كما كانوا يسيرون من قبل ؛ فان اتحاد العرب معناه اعلاء كلمة الدين ، ومعناه توطيد الخلق الرصين الذي تنشده في الدين ،

قلت لك لقد وجدت كل شيء متغيراً بعد أوبتي الا القليل ، ومن هذا القليل بيتنا الواقع في محلة العمارة ، واذا كنت قد عجبت لشيء فعجبي لهذا البيت القديم كيف قد صمد طول هذه المدة فلم ينهدم ولم يمل ولم يتضعضع - استغفر الله - لقد اخطأت بهذا الاستثناء وكان ينبغي ان استدرك

القول حينما يجيء ذكر بيتي فلقد وجدت الغرف وكأنها قد طليت بالقطران الاسود لكثرة ما حبس هذا الدخان المتصاعد من الموقد فيها ؛ وهاهي امي اليوم بعد ان أقعدها الكبر لاترضى ان تبتعد عن الموقد وابريق الشاي طول ايام الشتاء فتعقد لها شعلة كبيرة ينحصر منها الدخان في الغرفة وفي الدار ؛

اما ابي المستبد القوي الذي كان له الطول والحول في هذه الدار فقد تغير هو الآخر واصبح ضعيف الارادة مستكيناً قانعاً غير معترض ولا شاك ؛ ويبدو لي ان الكلمة النافذة في البيت اصبحت لامي العجوز ....

تعالي يا امي نغير ونبدل ؛ لنجعلك تقضين البقية الباقية من الحياة في راحة وهناء . تعالي نرمي بهذا الابريق بعيداً ونستبدل به خيراً منه ؛

— لا اوافق ابداً ...

— تعالي نقض على هذا الحوض الآسن الراكد فنخزن

ماءنا في برميل نظيف نستطيع ان نتعهد نظافته وغسله على الدوام ...

- ابداً . ابداً

— تعالي ننقلك الى غرفة اخرى ليتولى البناء اصلاح غرفتك هذه فيجعلها بيضاء كالحليب ، صافية الاديم كعين الديك ..

— لا يمكن

واكثرت من تعالي تعالي واسمعتني من ابداً ابداً الشيء الكثير حتى ضاق صدري فلم اقو على اخضاع ارادة هذه الام التي ترى كل هذه الطلبات اشبه بطلبات الاطفال الذين لا يلذهم غير التحويل والتغيير والتبديل اجابة [لميولهم] الطبيعية فهي اذن لاتزال تنظرني كما كانت تنظرني اولا ؛ وهي لاتزال تحسبني طفلا كما خرجت اول يوم دون ان تؤثر عليها رؤيتها لي باصغرن ودون ان تغير عقيدتها هذه الحلقة الكبيرة التي تلتف حولي من طلاب الدين !!

اذن فلا بدل ولا غير ، سواء رضيت ام لم ترض ؛

وهكذا فعلت ؛ ولم يمر شهر واحد الا وكان البيت يزهو ، والدار تضحك ، وهنالك سألتها :

— والآن كيف ترين الوضع يا اماه ؟

قالت — اذا كنت تريد الحقيقة فاني لا ازال اعتقد ان الوضع القديم كان خيراً مما آل اليه ..!!

عذاب الذكرى

النهاية

انا الآن في النجف ؛ وقد شكرت الله عز وجل على ما وفقني اليه من خدمة ابوي في ساعاتهما الاخيرة ، فقد دفنت أبي بيدي ودفنت امي بعده بشهور ؛ واقسم اني لم ابكهما ولم اجزع عليهما بكائي وجزعي على المرشد حبيب ولي كل الحق في ذلك لان الزمن الذي قضيته مع الدرويش كان اطول واكثر حوادث نفسية من الزمن الذي قضيته مع امي وأبي ؛ وما قيمة الام والاب الا في ذكرياتهما ، ويبدو لي ان السبب في شدة تعلق المرء بامه اكثر من تعلقه بابيه - في الغالب - راجع الى ملازمته الدائمة لامه في جميع ادواره ولاسيما في دور الحضانة والطفولة ؛ فكانت هذه الملازمة سبباً مهما لازدياد علاقة الابن بامه وتقديمه اياها على ابيه في

كثير من الاحيان ؛ ومن اجل هذا كانت للدرويش في نفسي المنزلة الاولى لانني لازمته مـدة السنوات الطويلة مشمولا بعطفه الابوي وآخذا منه نصيب الولد من رأفة الام وحنانها ونصيب التلميذ المقرب من استاذه المخلص ؛ فلم لا يكون لهـذا الدرويش النصيب الاكبر من المحبة والعواطف الطيبة ؟ ولم لا تثبت ذكراه بجميع الوانها على صفحة القلب الى النهاية ؟

اشهد اني قد كدت اتناسى امي وابي لحد ما بينما لم يمر على وفاتهما غير اربع سنوات وعظامهما لا تزال صلبة في مجثاهما الابدي ؛ في الحين الذي لم أنس هذا الدرويش وقد مرت عليه السنوات التي لاشك انها قد أبادت عظامه الآن وخلطتها بالتراب خلطاً لا يبين لها أثر ولا كيان ؛

قضيت ثلاثين سنة في الغربة ، ولـكنني لم اشعر خلالها بالوحشة التي يشعر بها الغريب عادة الا قليلا جداً

واذا كنت الآن اتوق الى شيء فهو ان اعود الى غربتي تيك وارجع الى عالمي الاول لانني — وان كنت احسب في

في عداد المنسولين — كنت احس بسعادة روحية لم ار لها مثيلا اليوم ، ولكن كيف استطيع ان اعطي نفسي بغيتها وقد اصبحت رب عائلة وبيت وعلاقات بالمجتمع ؟؟...

واذا تسنى لي ان اقطع علاقتي بكل هؤلاء فلا تتسنى لي تلك السعادة التي ابكيها الان واحن اليها ؟ فقد تقيدت بقيود روحية ومادية ؛ قيود لا أرى راحة قلبي الا في بقائها قوية شديدة القوة وهذا شأن كل متحضر مدني يقيده المجتمع بعلاقاته،

وقد اطرق اليوم تاركا حبلي لخيالي فيتراءى لي الماضي ماثلا امام عيني دون ان تحجزه الايام الغابرة فانسى نفسي واحسب اني قد انتقلت بكلي الى ما كنت فيه والى ما اتوق اليه وأمد يدي لامسك هذه الاشباح فاذا بها كالريح تحس بها ولا تطيق قبضها بكفك وافتح عيني لاحقق بريق الامل الباسم فاذا بهذا العالم المرئي خيالا كقبة السماء لا ترى العين فيها غير الزرقة المديدة العميقة التي ليس لها اول ولا آخر ، ويتلاشى كل شيء فلا تسمع مني الا زفرة اصعدها ، وآهة الفظها ،

غداً سيقف ابني حبيب مني كما اقف اليوم من ابوي وكما اقف من الدرويش ، فيتراءى له شبحي كما تتراءى لي الاشباح ويمد ذراعيه ليحتضنني فلا يحصل على شيء ؛ وهكذا سيكون شأن حفيدي مع ابيه

لقد عشنا كما عاش آباؤنا من قبل لا يشعرون بما يكتنفهم ويحيط بهم حتى اذا ماتوا اسفنا عليهم وحننا لهم ثم لا نلبث ان نلحق بهم فيؤسف علينا ويحن الينا وهكذا :

ما ادري لماذا لا يحس الانسان بالسعادة كما ينبغي ان يحس بها الا بعد فوات الوقت ؟ ولماذا تبقى هذه الذكرى بعد ان يفنى صاحبها ؛ كيف يبيد الجرم الذي يشغل حيزاً من الفراغ ويثبت هذا الشيء الذي ندعوه بالذكرى وهو المجرد من كل حد من حدود الجرم والمادة ؟

لقد حاولت مرات ان امحو السطور المثبتة على لوحة ذهني وانسى امرها فلا ارجع بذاكرتي الى الوراء ولكنني لم افلح في محاولتي بالرغم من انقطاعي عن زيارة قبر امي وابي بغية

ابتعادي عما يذكرني بامرهما ، لذلك تجدني في عذاب روحي دائم ؛

فهنيئاً لهؤلاء الذين تحكي صفحات قلوبهم صفحات الرمال التي لا ترتسم عليها الصورة الا تزول بعد دقية وتتلاشى خطوطها ، وهنيئاً لهؤلاء الذين لا يصطدمون بشيء الا وجعلوه في (الخرج) الذي لا يمتلئ ولا يضيق ؛

هنيئاً للجهال ، هنيئاً للبسطاء ، هنيئاً للسذج من الناس الذين لا يعنيهم شيء في الحياة غير شبع البطون ؛

وتعساً لارباب القلوب الشاعرة ، والحسيات الرقيقة ، الذين يسعدهم الالم كما يشقيهم ؛

فهرست

الموضوع	الصحيفة
بعد الموت	١٠٤
حكاية الاسرار . . . .] حقيقة الدين]	١٠٩
الايمان . . . .] الزواج . . . .]	١١٤
القطيعة	١٢٣
اللقاء	١٢٥
الخلاف العائلي	١٢٧
القلوب كالاشجار	١٢٩
بين القديم والجديد	١٣١
عذاب الذاكرة . . . .] النهاية . . . .]	١٣٧

